ثلاث عشرة قصة

" اهتداء الشيطان "

الطبعة الأولى

١٩٩٠

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

شارع ا... ان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

سلسلة «الوداع»

٧

جيرار بيسّيير

ثلاث عشرة قصة

" اهتداء الشيطان "

عرّبها

أديب مصلح

الفهرس

توطئة ٥
اهتداء الشيطان..... ٧
المسافر المتخفّي ٢١
عينا ماريز ٣١
النسغ النازف..... ٤١
مرض الحديد ٥٣
سرّ الساحرة..... ٦٧
القطار السريع ٨٣
عازف الناي ٩٧
الأستاذ فؤاد ١٠٩
سرطان مانويل ١١٩
الآنسة سعَاد ١٢٩
ليلة الأرغن الأخيرة ١٣٧
درب البلاد الغريبة..... ١٤٩
الفهرس ١٥٩

توطئة

إنّ من القصص القصيرة ما ينقلك، في لحظاتٍ خاطفةٍ، وعبرَ صفحاتٍ معدوداتٍ، إلى عالمٍ مليءٍ بالدهشة؛ وإنّ من الشعراء المبدِعين من يحوّل أَحداثًا يمرّ بها سواد الناس غير عابئين إلى دنيا من السحر والخيال.

ومؤلِّف هذه المجموعة من القصص التي يسرّنا أَن نقدّمها للقارئ العربيّ ليس قاصًّا محترفًا، ولا هو لقرض الشعر ممتهنٌ؛ بيد أَنّ الشعر هو المناخ الطبيعيّ الذي يحلّق في أجوائه، رشيقًا مجلِّيًا، وينثال سحر رؤاه من قلمه دفّاقًا، أخّاذًا.

إنّه الأب "جيرار بيسّيير" الذي وقف عمره ومواهبه على كشف الكنوز الثاوية في كلمات الإنجيل، وبثّ حُزَم النور المشعّة من سطوره، ونشر النار المنعشة التي تسري بين صفحاته.

وفي هذه القصص الثلاث عشرة، التي انتقيناها من مجموعة قصصٍ له تضمّ ثماني عشرة قصّةً[1] تتجلّى نظرته الطفوليّة إلى الكون المفعمة دهشةً وإعجابًا، نظرةٌ لمّاحةٌ، تخترق حجُب المظاهر الخادعة، وتكتشف، في كلّ إنسانٍ، وجهَ الله، وتراه حيًّا في كلّ صدرٍ؛ تراه في لفتة طفلٍ، في حبٍّ صادقٍ، في عينٍ ترنو إلى النور، بل حتّى في قلوب

(١) Gérard Bessière: La conversion du diable – Contes et Nouvelles – Les éditions du Cerf. Paris, 1975

الملحدين والسحَرة، طالما هم تحلَّوا بالصدق وسلامة الطويّة؛ نظرةٌ تذكّرنا بنظرة المعلّم الإلهيّ، الذي لم يقرع يومًا بسياط غضبه سوى الفريّسيّين والمنافقين، والمدّعين، الذين يعبدون الحرْف ويغتالون الروح، ويمسخون الله المحبّة.

إنّ قصّة الله وقصّة الإنسان تتعايشان وتسيران جنبًا إلى جنبٍ، والقصص التي نقدّمها إنّما هي تمجيدٌ للعفويّة والفرح والحبّ التي تصنع المعجزات، وتدرأ ما يغمر الأرض من كوارث ومحنٍ، وتهدي الشيطان نفسه إلى جادّة الحقّ والصواب.

إنّها تكريمٌ للواقعِ البسيط، الصادق، الذي يتطلّع كلٌّ منّا، يومًا، إلى الإفلات منه، بحثًا عن بلادٍ نائيةٍ يضفي عليها المجهول سِحرًا وغوايةً، ولكنّه، إذا ما فرّ، لا يصطدم إلا بالوهم، ولا يلقى سوى العنَت.

كلّ ذلك في أسلوبٍ مرهفٍ حافلٍ بإيحاء الصور المتألّقة، وطلاوة الوصف وروعة التعبير، وفي عفويّةٍ عذبةٍ بعيدةٍ عن التكلّف، والوعظ المتعالي، وفي ومضاتٍ تشرع للقارئ آفاقًا ينطلق في أجوائها خياله حرًّا مأخوذًا، في مغامرة اكتشافٍ طليقةٍ.

وقد جهدنا، في نقلنا لهذه القصص المختارة إلى العربيّة، أن نُبْقِي، ما أمكننا، على طلاوة الأسلوب، وأن نظلّ أمينين لحرف النصّ وروحه. وإن نحن جنحنا – في بعض القصص – إلى تغيير الأسماء، وإضفاء طابعٍ محلّيٍّ مألوفٍ، فعذرنا هو حرصنا على أن نوفِّر لقارئنا العربيّ أكبر قسطٍ من المتعة التي تقطّرها تلك الروائع. ونرجو أن نكون قد أصبنا بعض ما توخّيناه.

أديب مصلح

١

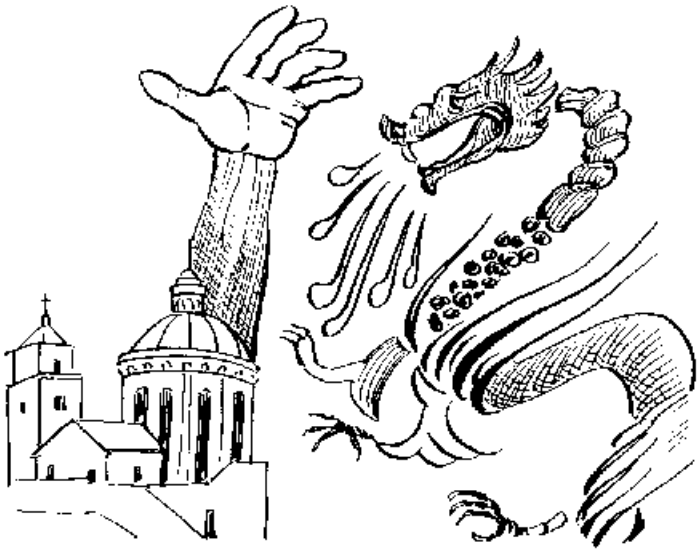

إهتداء الشيطان

اهتداء الشيطان

لقد جرت تلك الحادثة منذ زمنٍ غابرٍ، سحيقٍ.

كانت ليلةً هوجاء جُنّت رياحها واصطخبت، وكانت الريح تُسمَع وهي تنطلق مزمجرةً، من وراء الأفق، ثمّ تندلع في أمواجٍ متصادمة شرّيرةٍ، وكأنّ حُزَمًا من الأفاعي تصدي لها بصفيرٍ مفزعٍ، من كلّ صوبٍ.

كان الخريف يجرّ ذيول رحيله، بعد أن فرش الأرض أوراقًا مصفرّةً أو محمرّةً، وقد أضاف عصف الريح بتلك الأوراق اليابسة، إلى معزوفة الغضب، نغمةً مقلقةً. وكأنّ الرياح قد تآمرت على قرية ر... المزروعة على حنايا التلّة، إذ كانت أمواجها الهائجة، القادمة من بعيدٍ، تلتقي كُتَلاً عاتيةً، وتتألّب لتندفع بكلّ زخمها على البيوت المتفرّقة حتّى لتكاد تقتلعها، فتصطكّ الأبواب، وترتعد النوافذ، ويتدفّق الرعب إلى الصدور.

كان خوري القرية، الأب حبيب، قد قفل لتوّه من عيادة مريضٍ، وهو يتسلّق السلّم بخطًى ثقيلةٍ منهكةٍ، فيما خادمه كان يفرغ من إِعداد القربان والنبيذ لقدّاس الصباح. كان قد أحكم إِغلاق النوافذ جميعها، وإثر عودة الكاهن تأكّد من إيصاد الباب الخارجيّ، فيما كان ضوء

المصباح ينوس ويتراقص، كلّما اندفعت موجة ريحٍ من خلال المدخنة، فهزّت كلّ ما في البيت.

يا لها من ليلة! ومع أنّ النوم كان يبدو متعذّراً وسط ذلك الصخب الجهنّميّ، إلاّ أنّ الإخلاد إلى الفراش كان كفيلاً بإيحاء بعض الطمأنينة.

كان الكاهن ينوء بالتعب، فحيّا خادمه، وهو في طريقه إلى غرفته، وشرع في تلاوة صلاة النوم، فيما كان يخلع ثيابه. واتّجه الخادم، بدوره، إلى غرفته، ولكنّه فوجئ بمطرقة الباب الخارجيّ تقرع، فتجمّد في مكانه، وقد فتح راحتي يديه، وحبس أنفاسه. مَن علّه يكون الطارق في منتصف تلك الليلة العاصفة؟ ولم يطل تساؤله إذ قُرع الباب مرّةً ثانيةً، فدنا بخطًى مرتجفةٍ مترددّةٍ وسأل بصوت متلعثم:

– "من الطارق؟"

وجاءه الردّ ترافقه قرعةٌ أُخرى على الباب:

– "افتح".

وهرع الخادم مرتعدًا نحو غرفة الكاهن وهو يتمتم:

– "أبونا، هناك من يقرع الباب".

– "لا ريب أنّ الريح هي التي تعبث بالباب، دع عنك وامضِ إلى فراشك".

– "لا، بل هناك شخص في الخارج يطلب الدخول".

– "افتح له إذن".

– "بل افتح أنت بنفسك".

وفيما كان الكاهن يهبط السلّم، وهو يحاول تثبيت أزرار قميصه الذي لم يكن قد فرغ بعد من خلعه، اعتصم الخادم في المطبخ وأمسك بملقط الموقد تحسّبًا...

وصاح الكاهن:

– "من في الخارج؟... تكلّم وإلاّ ما فتحت لك!".

وعقبت هذا الإنذارَ فترةُ صمتٍ قصيرةٌ حافلةٌ بالحيرة، ثمّ تناهى صوتٌ مبهمٌ قائلاً:

"مسافرٌ. أرجو أن تفتحوا لي".

وردّ الكاهن:

– "مسافرٌ! وفي هذا الليل العاصف؟".

وتمتم الخادم فيما كان عواء الريح يتعالى:

– "من الأفضل ألاّ تفتح الباب، أبونا".

غير أنّ الكاهن كان قد أمسك بالمزلاج وشدّه في حزمٍ. وتدفّقت أمواج الريح المزمجرة دافعةً بالكاهن إلى الوراء حتّى كاد يسقط، ولكنّه تماسك وقال للزائر:

– "هيّا، تفضّل بالدخول، هيّا".

ودقّت الساعة اثنتي عشرة دقّةً.

ولمح الخادم من المطبخ، وهو ما زال متشبّثًا بملقط الموقد، رجلاً هزيلاً في ثيابٍ خلقةٍ، إلا أنّه كان يبدو مهذّبًا. وقد خاطب الكاهن قائلاً:

– "أرجو المعذرة لإزعاجك في مثل هذا الوقت المتأخّر. أتأذن لي ببضع دقائق، فلي معكَ حديثٌ ملحٌّ؟".

– "حديثٌ! في مثل هذا الوقت؟".

– "إنّني بحاجةٍ إلى التكلّم مع كاهنٍ".

وسرت رعشةٌ في أوصال الأب حبيب. لقد كان كاهنًا حقًّا، وربّما كان الزائر ينوء بوزرٍ يودّ الاعتراف به، أو بسرٍّ يودّ إيداعه صدرًا أمينًا. فأشعل مصباحًا في المطبخ وتقدّم به نحو غرفة الطعام، قائلاً للضيف:

– "اتبعني. اجلس وتكلّم".

وأغلق الزائر الباب من ورائه، وأومأ بما يعني رفضه الجلوس، فيما كان صراع الريح حول البيت يبلغ قمّة عنفه. ورشق الزائر الكاهن بنظراتٍ حادّةٍ لا تُقاوَم، من عينين صغيرتين رماديّتين، وقال في لهجةٍ حازمةٍ:

– "حضرة الكاهن، أنا إبليس، أنا الشيطان، وأودّ أن أهتدي أرغب في مصالحة الله!".

وارتدّ الكاهن خطوةً إلى الوراء، فيمَا كانت الريح تسكن، وأرض البيت تئنّ، والخادم خلف الباب ما زال متقلّدًا الملقط... واعترض الكاهن:

– "ولكنّك مأفونٌ! فليس للشيطان جسدٌ بشريٌّ".

– "أيّها الكاهن، تفضّل واسمع اعترافي، ثمّ صالحني مع الله".

– "دع عنك هذا الهراء... سنتكلّم في الأمر غدًا".

وأردف الزائر الهزيل:

– "أنتَ تعلم، يا حضرة الكاهن، أنّه لا يسوغ ترك ساعة النعمة تفلت، وأنا أرغب في التوبة الآن. غدًا...".

وأطرق الكاهن، وقد ألقى جبينه على كفّه... لا لم يكن يحلم، وكانت الريح قد استأنفت صخبها المجنون، وعادت المدخنة تردّد صفيرها فتبعث في الظهر قشعريرةً. ثمّ استدرك الكاهن بصوتٍ حاول أن يجعله هادئًا:

– "سنتدبّر لك سريرًا لهذه الليلة، وفي الصباح...".

– "لا، يا حضرة الكاهن، بل يتحتّم أن تسمع اعترافي في الحال. ألا ترى أنّ شرور الشيطان قد فاضت وبلغ السيل الزُبى؟".

"ولكن ما الذي يثبت لي...؟".

وخفض إبليس صوته، فيما التمعت بروقٌ مفزعةٌ في عينيه، وهمس في أذن الكاهن:

– "أتودّ أن أُعيد إلى ذهنك ذكرياتٍ لنا مشتركةً؟...".

واشتدّ صرير الريح من جديد. وكان الكاهن قد جمد في مكانه، وعرا وجهه الاحمرار. وما لبث أن تفرّس فجأةً في زائره وصاح في وجهه:

– "أُخرج أيّها اللعين الكاذب!".

وفتح الخادم الباب، مشرعًا الملقط، غير أنّ إبليس كان قد انسلّ نحو العتبة كالثعبان، وقبل أن يندفع إلى الخارج أنذر بصوتٍ خالٍ من أيّة نبرةٍ:

"بما أنّك تقذفني من جديدٍ إلى الشرّ، إلى الظلمات الخارجيّة، فسأنتقم... غدًا سأدمّر كاتدرائيّة مطرانيّتكم".

وفي حين كان الخادم يوصد الباب بالمزلاج من جديدٍ، كان

الكاهن، وقد ارتمى على كرسيٍّ، يمسح جبينه المتصبّب عرقًا. وكانت العاصفة قد تباعدت ونأت أصواتها. ودقّت الساعة الواحدة، فيما كانت شعلة المصباح تتراقص وتنوس.

وكانت كلمات الإنذار تتردّد موجعةً في رأس الكاهن: "غدًا سأدمّر كاتدرائية مطرانيّتكم". وكان الخادم يحاول تهدئة روعه، معاتبًا برفقٍ:

"إنّه لمن الحمق فتح الباب للمتسكّعين في الليل. إنّك لا تعير أقوالي اهتمامًا، ومع ذلك، أيّة فائدة جنيت؟ كان بوسع هذا اللعين أن يجد له مرقدًا يقضي فيه الليل، في أيّ مستودعٍ أو اسطبلٍ".

ثمّ جاء الكاهن بكأس ماءٍ، فشربها دفعةً واحدةً، في صمتٍ، ثمّ تمتم: "الكاتدرائيّة...".

– "وماذا عن الكاتدرائيّة؟"، سأل الخادم.

– "إنّك لا تدرك شيئًا. لا تدرك أنّ الزائر ليس سوى إبليس، وباستطاعته تدمير الكاتدرائيّة".

وعَرَت الخادمَ رعدةٌ من رأسه حتّى أَخمص قدميه، وسأل:

– "أيمكن ذلك؟ وكيف عرفت؟".

– "هو قال لي ذلك، مثلما قال أشياء أُخرى كثيرةً. إنّه إبليس، أؤكد لك ذلك!".

وخفّ الخادم إلى الباب ليتيقّن إحكام المزلاج. وكان السكون قد استعاد سيطرته على الليل فلم يعد يُسمع سوى حفيف أوراق الأشجار. بيد أنّ عاصفةً كانت تتفجّر في صدر الكاهن، عاصفةً قد لا تشهد حياة إنسانٍ مثلها كثيرًا. كان قد دفن رأسه بين راحتيه، وراح يثير

ذكريات ما تلقّنه من لاهوتٍ، ويقلّب كلمات الكتاب المقدّس، وأحيانًا يحاول الصلاة أو ترديد بعض الطقوس، في سرّه.

وأخيرًا سأله الخادم:

- "وبعد؟".

- "وبعدُ، سأمضي إلى المطرانيّة في الحال".

- "أَجُنِنْتَ؟".

بيد أنّ الكاهن كان يتسلّق الدرج على عجلٍ نحو غرفته. وسمعه الخادم وهو ينتعل حذاءه الضخم، وما لبث أن رآه ينحدر، وبيده عصاه، وقد اعتمر قبّعته الصفيقة. وأخذ وقع خطواته يخفت شيئًا فشيئًا في الطريق المظلم... ورسم الخادم على وجهه إشارة صليبٍ واسعةً، وئيدةً.

كان ضوء الفجر ما زال متردّداً في الانتشار، عندما بلغ المطاف بالأب حبيب إلى مشارف المدينة، وكان لخطواته ترددٌ رتيبٌ في شوارعها المقفرة. وكانت أنظاره شاخصةً إلى قبّة الكاتدرائيّة، في حين كان يدندن في رأسه تهديد إبليس "سأدمّر الكاتدرائيّة".

كان الأسقف مسافرًا، ولكن لا بأس، فنائبه صديقٌ للأب حبيب، له مثل عمره، وغالبًا ما كان يقوم بزيارته فيقضيان معًا بعض الوقت ويتجاذبان الأحاديث. وكان على جانبٍ كبيرٍ من الجدّ والعزيمة. وما إن ألمّ برواية زائره حتّى هبّ للعمل، ولا سيّما أنّه كان قد فرغ، منذ أيّامٍ قليلةٍ فقط، من إصلاح هيكل الكاتدرائيّة الذي كان قد انهار لأسبابٍ ظلّت مستغلقةً. وكان النهار يوشك أن يطلع، ولا مجال للتهاونٍ أو التلكّؤ، فأنفذ القندلفت يستدعي على عجلٍ كلّ كهنة

الأبرشيّة لاجتماعٍ طارئٍ ملحٍّ، فيما أخطر جميع الحرّاس على مداخل المدينة. واستنفر بعضهم لسدّ المنافذ المفضية إلى الكاتدرائيّة.

كانت قاعة الاجتماع أشبه بخليّة نحلٍ، عندما دخل النائب الأسقفيّ، جارًّا الأب حبيب من كمّه. وعُرِضت الوقائع، وبلغ الانفعال أوجَه، واقترح أحد المؤتمرين نشر شريطٍ من الكهنة حول بناء الكاتدرائيّة، متسلّحين بالماء المقدّس والمرشّات. وسنحت الفرصة لكاهنٍ آخر كي يلفت الانتباه إلى الإهمال السائد منذ سنواتٍ في توفير الماء المقدّس للكاتدرائيّة، بحيث نضبت منه الأجران، ملمّحًا إلى أنّ تراخي الأخلاق هو الذي أفسح للشيطان مجالاً كي يسرح ويمرح، ولكنّ الوقت لم يكن ملائمًا للاستفاضة في مثل هذه المواضيع. واقترح آخر أن يخفّ اثنان من الكهنة إلى النهر القريب لتبريك دلاء الماء فيمكن مواجهة الشيطان لا بالمرشّات بل بدلاءٍ مليئةٍ بالماء المقدّس. وحسم النائب الأسقفيّ النقاش في حزمٍ، وقرّر خطّة العمل، ووزّع الأدوار. وفي غضون أقلّ من ساعةٍ كانت التدابير قد أُحكمت.

في الأزقّة، كان الكهنة بحُلَلِهم الكنسيّة يردّدون الترانيم والأدعية، وقد ضربوا حوالي الكاتدرائيّة نطاقًا، وأحاق بكلٍّ منهم قبضةٌ من الأطفال ممسكين بدلاء الماء المقدّس والمرشّات. وفي أزقّةٍ أُخرى كان الرجال قد عقدوا سلسلةً مترابطةً، أوّلها عند النهر، حيث كان كاهنان يباركان دلاء الماء التي تنتقل، بعد ذلك، من يدٍ إلى يدٍ، بحيث ينال منها كلّ فردٍ وكلّ منزلٍ مبتغاه. وقد أُذن لأولاد الجوقة بالطواف في أرجاء المدينة، وقد صنعوا، من أوراقٍ عتيقةٍ، "قنابل مائيّةً"، وتأهّبوا لرشق عدوّ الله بها أينما لمحوه. وفي كلّ بيتٍ، كانت أوعية

الماء المقدّس قد تصدّرت فوق المناضد، والمدينة بأجمعها على أُهبة الاستعداد لمقارعة الشيطان.

وتصرّمت الصبيحة ساكنةً لم يعكّر هدوءها حَـدَثٌ أو ظهـورٌ. وعندما بدت الشمس، وقد ابتعدت عن المشرق، بعد أن تبـدّد غمـام الصباح، أخذ انتباه المحاصرين يتراخى، شيئًا فشيئًا، لا بل تـسرّب الشكّ إلى بعض النفوس حول صـدق مـا رُوي، حتّـى إنّ بعـض المرتابين شرعوا يستعدّون لتزجية الوقت في لعبة ورقٍ. وإذا بصيحةٍ حادّة توقظ انتباه الجميع وتشدّه من جديد، فقد لمح أحد أطفال الجوقة رجلاً غريبًا ورشقه بقنبلةٍ مائيّةٍ، ففرّ هاربًا. ثمّ مـا لبـث أن ظهـر الغريب بالقرب من الكاتدرائيّة، فأثار اضطرابًا وهرَجًا، وتدفّقت عليه المياه المقدّسة من مرشّات الكهنة، ودلاء المؤمنين، وقنابل الأطفـال الورقيّة. وكان الغريب يعدو وفي إثره حشدٌ مزركشٌ مـن الرجـال والنساء، والكهنة بحُلَلِهم، وأطفال الجوقة بألبستهم الزاهيـة. وكـان النائب الأسقفيّ يستفزّ الناس إلى ملاحقة إبليس، في حين كان كهنـةٌ آخرون يتشدّقون بالتأكيد أنّه لن يجرؤ على الرجوع بعد أن رأى من الجميع العزم على مقاومته. وكان البعض يرى أن مثل هذا المتطفّـل الزريّ لم يكن ليستأهل كلّ هذه الاستعدادات، فهو أقلّ رهبـةً ممّـا يبدو. وأخيرًا أجمع الرأي على إبقاء حالة التأهّب قائمةً حتّى هبـوط الليل، ولكن مع التزام السكينة، في حين كانت تخامر بعض الكهنـة حيرةٌ ممزّقةٌ: فإذا ما تمّ القبض على عدوّ الله، ما الـذي سـيتوجّب اتّخاذه من إجراءٍ؟ سجنه؟ ولكن من يضمن منعه من الفـرار؟ وأيّـة سلطةٍ هي التي يحقّ لها مقاضاته؟

وحاول النائب الأسقفيّ تبديد المخاوف بالتأكيد أنّ إبليس روح، وبالتالي لا مجال للقلق في شأن القبض عليه. بيد أنّ الأب حبيب اعترض قائلاً:

– "لو أنّكَ قابلته أو حادثته لكان لك في الأمر رأيٌ آخر!".

وكان اللاهوتيّون من الكهنة يُعملون الفكر، ويقلّبون نُصوص الكتاب المقدّس، يستفسرون مطلع سفر أيّوب، ويستطلعون تفاصيل تجربة يسوع، غير أنّهم لا يقفون على قرارٍ واضحٍ. ورأوا في نهاية المطاف، الدعاءَ إلى الله كي يعيد إبليس إلى وضعه الطبيعي كروحٍ مجرّدٍ ويُقصي عنهم شروره.

وكان من شأن التطواف المقرّر في مساء ذلك اليوم، تكريمًا للذخائر المقدّسة المودعة في الكاتدرائيّة، إشاعةُ الطمأنينة في النفوس وطردُ الأرواح الشرّيرة التي نشرت البلبلة والاضطراب. وكفّ الشباب وأطفال الجوقة عن الملاحقة، بعد أن نفدت مؤونتهم من الماء المقدّس، وبعد أن تجلّى لهم أنّ إبليس يتمتّع بخفّةٍ فائقةٍ لا يسعهم معها اللحاق به. وكانوا يؤوبون وحداناً وزرافاتٍ، إلى جوار الكاتدرائيّة ليسردوا بطولاتهم، ويرووا فعالهم التي كان لها الأثر في طرد الدخيل... وفي غضون ذلك، كانت تُضاء شموع الكاتدرائيّة، تمهيدًا للشروع في التطواف وفي طقوس تكريم الذخائر.

وعند هبوط الليل كان إبليس قد اجتاز حدود المدينة، إلا أنّه ما فتئ يتلفّت إلى الوراء، تحسّبًا من أيّ مطاردٍ عنيدٍ. وكان ظمأٌ حارقٌ يلهب أحشاءه. ولمّا صار إلى مدخل قريةٍ تنامى إلى سمعه خرير نبعٍ قريبٍ. وفيما كان يرتوي بجرعاتٍ نهمةٍ، داخله إحساسٌ بحضورٍ

غريبٍ، والتفت فرأى كاهنًا جالسًا على صخرةٍ ينظر إليه مبتسمًا. وسرعان ما بدّد عنه الخوف الذي عاد يتنامى ويضجّ في حنايا صدره، حين سأله في رقّةٍ وعذوبةٍ:

– "يبدو أنّ العطش قد نال منك. من أين أنت قادمٌ؟".

– "من المدينة".

– " أنت، إذن، ملاحَقٌ؟".

وتلفّت إبليس حواليه، وردّ، بعد تلكّؤٍ:

– "لا أَظنّ أنّ أحدًا، بعدُ، في إِثري".

وأردف رجل الدين:

– "لا بدّ أنّك لقيت منهم عنتًا شديدًا، فقد كانوا لك بالمرصاد".

ولاذ إبليس بالصمت، فقد كانت رقّة مكلّمه ووداعته تنفذان إلى أعماقه، لا بل آنس أنّ تحوّلاً جذريًّا قد ألمَّ بكل كيانه.

واستأنف الكاهن في رفقٍ:

– "اِستقِ مزيدًا من هذا الماء القراح، فيسكن روعك".

ولكنّ إبليس لم يكن، بعدُ، في ظمأٍ إلى الماء. كانت عيناه عالقتين بمحدّثه، وكأنّ نهرًا من السكينة قد راح ينساب في داخله، بل كأنّ فجرًا جديدًا أخذ يلوح في أفق ذلك الليل البهيم.

وأضاف الكاهن:

– "هيّا، تعالَ لتناول العشاء معي، ولا تحمل على الناس ضغينةً، فهم يلقون مشقّةً في الاعتراف بضعفهم، بل بخبثهم أحيانًا".

وتفجّرت الدموع من مآقي الشيطان، واستسلم إلى نحيبٍ صامتٍ.

كان الكاهن خوري قرية في تلك المنطقة، تميّز بالعذوبة والطيبة، بحيث إنّه كلّما فكّر الناس هناك بالله تراءت لهم صورة ذلك الكاهن الطيّب. وكانوا يقولون فيه: "إنّه أطيب من الخبز الساخن".

ويُروى أنّ رجلاً ضئيل الجسم، خجولاً، شديد التهذيب، حلّ، عشيّة ذات يومٍ، ضيفاً عليه، ولم يعد يبارح منزله، وغالبًا ما كان يُشاهَد جاثيًا في إحدى زوايا الكنيسة، خاشعًا، ومنتحبًا أحيانًا.

ويومَ انتقل الكاهن إلى جوار ربّه، لحق به ضيفه في مساء ذلك اليوم عينه.

٢

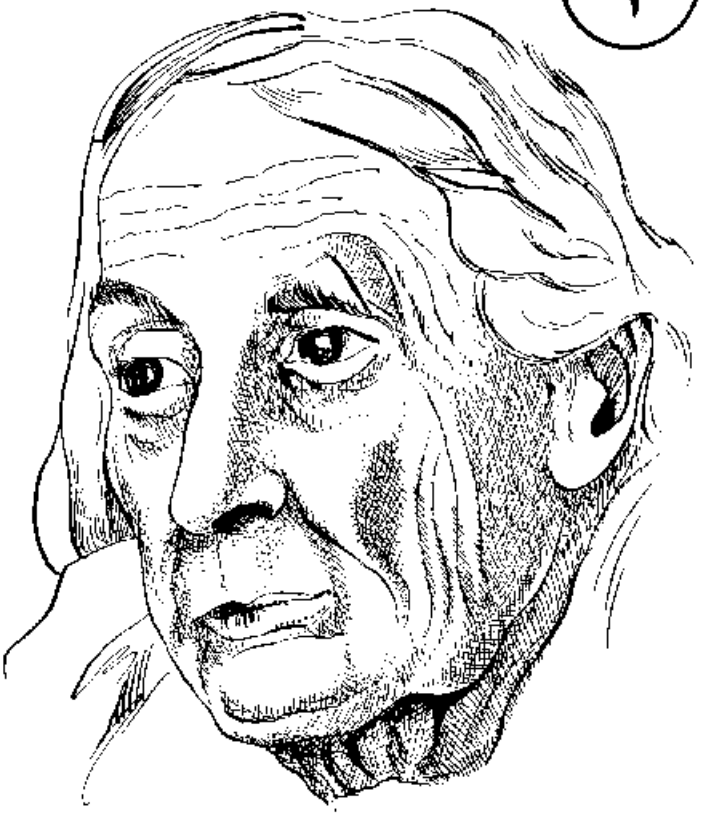

المسافر المتخفّي

المسافر المتخفّي

هل يمكن للمرء أن يقرّر مصيره بحركةٍ تعبث بها يده، وهو في شبه غفلة؟

عندما أقفل "خورخي" باب مرحاض الطائرة، في بساطةٍ لا يشوبها قلقٌ، ولا توتّرٌ، لم يَجُلْ بخَلَده أنّه ربّمَا كان يوصد إلى الأبد آفاق حياته الماضية.

قبل لحظاتٍ، كان ما زال يكنّس قاعة الانتظار الخاصّة بالبوّابة رقم ١٤، في مطار مدريد. وكم طالما أصغى إلى الصوت المخمليّ الهابط من السقف داعيًا إلى السفر، وكانت جماهير من الناس تمضي كلّ يومٍ، أمّا هو فلا يبارح مجاله الضيِّق، أبدًا، مكتفيًا بمراقبة المسافرين من رجالٍ ونساءٍ، يبدون وكأنّهم يستشفّون رحابة السماء الفسيحة، ويتأمّل الطائرة الجبّارة، وهي تنزلق في تؤدةٍ متلمّسةً المدرج.

في ذلك اليوم، كان الجمهور جميلاً، وقمم الهضبة المقابلة للمطار كانت توقظ رغبةً في الانطلاق إلى ما وراء الحدود. ودنت منه سيّدةٌ شابَّةٌ، وقد أمسكت بيد طفلةٍ جميلةٍ، مستفسرةً، بغية التثبُّت

أنّ البوابة هي حقًّا منطلق الرحلة إلى كراكاس في الساعة الواحدة والنصف، وعندما ردّ عليها بالإيجاب، شكرته بابتسامةٍ ساحرةٍ، رغم زيّه الأزرق، وتوهّجت كاراكاس في خياله.

ولدى توقّف الطائرة، استُدعيَ خورخي على عجلٍ للانضمام إلى فرقة التنظيف التي غاب بعض رجالها، ولم يكن في الوقت متَّسعٌ للتلكّؤ، فعلى الطائرة أن تقلع من جديدٍ، في غضون خمس عشرة دقيقةً فقط.

وكانت موسيقى عذبةٌ تنبعث من حنايا الطائرة الجاثمة، فتخلق مع الدفء المهيمن، والمقاعد الوثيرة، والنوافذ المتلاحقة، جوًّا من المغامرة والخيال. وأوعز رئيس فرقة التنظيف إلى خورخي أن يعنى بالمراحيض، في حين كان زملاؤه قد فرغوا من مهمّتهم وأخذوا يخرجون، وكان طاقم الطائرة منهمكًا بالتأهّب للانطلاق، بحيث لم يعد هناك مَن يهتمّ بأمر خورخي، فأقفل باب المرحاض، وبحركةٍ وئيدةٍ من إصبعه، دفع المزلاج.

من المؤكّد أن المسافرين، ومنهم تلك المرأة الشابّة وطفلتها، كانوا يستقرّون، آنذاك، في أماكنهم. أما خورخي، فلم يكن يسمع سوى صفير المحركات الحادّ، الذي طالما أصغى إليه في ذهولٍ. كانت الطائرة ما تزال ثابتةً في مكانها، غير أنّ المحرّكات قد أخذت تبذل أقصى طاقاتها، وكأنّها تمتحن قُدراتها؛ ثمّ همد، بعض الشيء، هديرها، وشاعت ارتعاشةٌ في جسم خورخي.

كان أنف البوينغ يستدير في تؤدةٍ نحو اليمين، في شيءٍ من المهابة، وتعتري الجسم الحديديّ الجبّار بعض هزّاتٍ لدى ملامسته أرض المطار. توقّفٌ يليه زحفٌ بطيءٌ، وانعطافٌ، ثم توقّفٌ جديدٌ.

لا بدّ أنّ الطائرة كانت حينئذٍ، على مدرج الانطلاق. وهناك، على الشرفات، أو خلف النوافذ الزجاجيّة الرحبة، كانت عيونٌ تحدّق، وقد اغرورق بعضها بالدموع. كم طالما راقب خورخي قبلات وداعٍ طويلةً، ونظراتٍ تحاول الإمساك بمن يمضي، وأيادي تتشنّج لحظةَ يأزف الفراق، ويلفّ الدوارُ الرؤوس!

طائرة البوينغ، الآن، متجمّدةٌ في طرف المدرج، تحت الشمس، والمطار مشرعٌ، وكأنّه شاطئ العالم. وفي حجرة القيادة حيث توهّجت سماءٌ من الأضواء الصغيرة، انتظارُ إشارةٍ؛ ويرين الصمت عندما تتحرّك المقابض، ويرتجّ ذنب الطائرة، ويدرك خورخي أنّها قد حانت اللحظة التي تنطلق فيها الطائرة، في جريٍ مجنونٍ، وكأنّها تخشى عدم التمكّن من الانسلاخ عن الأرض. وتسري ارتعاشةٌ مباغتةٌ مؤذنةً بالإقلاع، وتهدر المحرّكات بعنفٍ، بين فينةٍ وفينةٍ، وكأنّها تستعيد أنفاسها في عمق. كم طالما تشوّق خورخي إلى تلك اللحظة السحريّة!

شيئًا فشيئًا، اختفت البوينغ عن الأبصار، وهناك، على الشرفات، أخذت أفواج المودّعين في التشتّت، في حين تخلّفت بعض النسوة. وقد تسمّرت أيديهنّ على الدرابزين. ترى من أكثر معاناةً: المسافرون أم المودِّعون؟

من المؤكّد أن أيّة دمعةٍ لم تحرق جفنًا، لسَفَر خورخي، مع أنّه. هناك، ثاوٍ في مؤخرة الطائرة، يفتقر حتّى إلى نافذةٍ يرى منها مدريد وهي تتلاشى في البعيد، ويستعرض ألوان إشبيليا المتلاحقة؛ وها قد فكّ الركّاب الأحزمة، وأخذت المضيفات توزّعن الصحف والمرطبّات، والبسمات، على المسافرين.

كان خورخي يلقى عناءً في الانسلاخ عن مدريد، ففي مخيّلته تحتشد أكثر الوجوه حضورًا، وأشدّها إلى قلبه التصاقًا: وجه أمّه التي أَلِفَ أن يزورها كلّ يوم أحدٍ، وما عساها ستقول بعد غدٍ، فاليوم هو الجمعة، أو هو كان يوم الجمعة على الأقلّ، في مدريد، أمّا الآن فهو لم يعد يدري؛ ووجوه زملائه في مطار مدريد؛ ووجه أنييس التي ودَّ أن يتزوّجها، ولكنّها تزوّجت رجلاً آخر؛ ووجه رئيسه الذي أمره، قبل قليلٍ، بتنظيف المرحاض، ووجه أخيه أنطونيو الذي أُودع السجن، من غير سببٍ معروفٍ؛ وأخيرًا، وجه السيّدة الشابّة التي ابتسمت له، في قاعة انتظار البوّابة ١٤، ووجه طفلتها الحلو.

"كاراكاس"! منذ سنواتٍ ما انفكّت هذه المقاطع الثلاثة تحاصر ذهن "خورخي كالوسواس"، فيتخيّل مدينةً كبيرةً يغمرها النور والفرح، تنتصب على قمّة هضبةٍ، على حدِّ ما وصفها له أحد زملائه، وكأنّ يد الجبال قد شالتها صوب السماء، وأهدتها للشمس.

بين الحين والحين، كان ذنب الطائرة يهتزّ، ويدٌ تحاول تحريك قبضة الباب، وقد تكرّرت المحاولة في إلحاحٍ، ثم يتحوّل المسافر إلى مرحاضٍ آخر؛ وخورخي قابعٌ مع خياله وذكرياته، يتخيّل أمّه تنشر الغسيل، وأخاه المرميّ في سجنٍ لا يعرف له سببًا، ويتصوّر المدن والمحيطات التي تسبح الطائرة فوقها ولا يرى منها شيئًا. كم من مطارح في العالم تصلح للعيش، لو كان للمرء أن يختار مسرح حياته!

كم كان يتمنّى مشاهدة الشمس التي لا تغيب تلاحق الطائرة أينما اتجهت، وجبال الغمام الجبّارة. التي تتراكض وتتدافع من تحتها ولكن لم يكن يسعه سوى الإنصات إلى انزلاق المركبة الهوائيّة الليِّن في

الأجواء الفسيحة. وعندما يضيق ذرعًا بالإنصات الطويل، تأخذه سنة نومٍ، لا تلبث أن تعكّرها ارتعاشةٌ مباغتةٌ تنتاب الجسم المعدنيّ الجبّار، أو يدٌ مِلحاحٌ تحاول اقتحام مخبئه.

"كاراكاس"... يبدو أن تلك اللفظة قد خبا توهّجها منذ اضطرّ خورخي إلى الاختباء، وانحجبت عنه كلّ مشاهد الدنيا؛ فلا بدّ للمرء من الرؤية الفسيحة، والتنفّس الحرّ، لكي تنفسح آفاق نفسه، وتدبّ فيها الحياة.

أما داخل الطائرة، فكانت الظهيرة المتمادية قد زرعت النعاس؛ الطفلة الجميلة كانت قد أغفت منذ ساعات، وانتثر شعرها على حضن أمّها، التي كانت تغالب النوم، في حين أنّ قلبها كان قد سبقها إلى كاراكاس، وراح خيالها يتأمّل ذلك الوجه الذي هو أفسحُ من يد الجبال المشرعة، الوجه الذي يمثّل مدى حياتها.

وأخيرًا، أذاعت إحدى المضيفات، في لغاتٍ ثلاث، أنّ الطائرة ستهبط في مطار كراكاس، في غضون ثلاثين دقيقةً. وأدرك خورخي، من تعاقب الهزّات وعنفها أنّ الهبوط قد بات وشيكًا، فلا بدّ له أن يُعِدّ للأمر عدّته. وما لبثت العجلات أن صدمت المهبط، صدمةً جافّةً، أعقبها جريٌ متشنِّجٌ. إنّ المهبط على خطواتٍ من شاطئ البحر، وشمس الظهيرة ساطعةٌ، في حين أنّ ساعة مدريد توشك أن تعلن انتصاف الليل.

نهض خورخي بتؤدةٍ، وألصق أذنه بالباب، بعد أن دفع مزلاجه في لينٍ، وحين تباطأ جري الطائرة، تم توقّف، لمح، من فرجة الباب، الركاب يهبطون، ورئيس المضيفين يصلح وضع قبّعته أمام مرآةٍ، على صوت إيقاع الموسيقى التي عادت تبثّ أنغامها. المضيفات

أصبحن عند أقدام السلّم الخلفيّ، ولكن عند مقدّمة الطائرة كان بعض رجال التنظيف، وجميعهم في مثل زيِّه الأزرق، منهمكين في عملهم؛ وآخرون، قرب الطائرة، كانوا يقلُّون الصناديق، ومن كلّ جانبٍ أنابيب مضخّاتٍ، وناقلاتُ محروقاتٍ، وعرباتٌ صغيرةٌ. وتوجّه خورخي، الهوينى، نحو غرفة القيادة، تم هبط على السلّم الأمامي مختلطاً بالعمّال، في حين تحلّق طاقم الطائرة، وموظّفو الأمن، حول شخصيّةٍ كانت تبدو عالية الشأن. ثمّ انسلّ خلسةً، وتوارى من غير أن يلتفت إليه أحدٌ، وهل التفت إليه، يومًا، طوال حياته، أحدٌ؟

ها هوذا خارج المطار، بين القادمين الذين تسلَّم كلٌّ منهم حقائبه. وها هي ذي المرأة الشابّة، في سيّارة أجرة، وإلى جوارها رجلٌ يحمل الطفلة بين يديه، ودنا خورخي فسمعه يدلي للسائق بالعنوان: سيلنسيو ١١٥٨. ويعلو من جديدٍ هدير محرّكات الطائرة، وهي تستعيد الجوّ قافلةً إلى مدريد، مدريد التي كان فيها منذ ساعاتٍ فقط.

ثلاث ساعاتٍ سار خورخي عبر الجبل، بين هدير الشاحنات، ومصابيح السيّارات، قبل أن تطالعه أضواء كاراكاس الأولى، تلك المنبعثة من أكواخ البؤس التي تحيق بالمدينة كالزنّار. وعندما نال منه التَّعَب والنعاس، استسلم لنومٍ، في بستانٍ على هضبةٍ، إلى أن أيقظه صياح ديكٍ حادٌّ، فرأى النور الشاحب يغمر، كأمواج المحيط، جنبات الجبل الداكنة. "كاراكاس"، المدينة التي طالما حلم بها، كانت تستيقظ على مهلٍ، ويتنامى إلى مسامعه هدير شاحنةٍ عابرة، وصيحات الديكة التي تتجاوب في البعيد. لقد بدت له المدينة، وكأنّها تتهادى بين متائه الجبال، فسحَرَه إيقاعها.

في الساعة التاسعة، كان في قلب كاراكاس، في شارع "سيلنسيو"، أمام المبنى الذي يحمل الرقم ١١٥٨. وبعد استفسار حارس المبنى، صعد وقرع جرسًا، فأفادته فتاةٌ أن السيّدة لم تستيقظ بعد، وأن عليه العودة، عند الظهيرة. فمضى يتسكّع في الشوارع، والأروقة الممتدّة تحت الأرض، وَيَتَأَمَّل واجهات الخازن؛ وعند اقتراب الظهيرة، كان يتسلّق، من جديدٍ، سلَّم المبنى ١١٥٨.

للوهلة الأولى لم تعرفه السيّدة... مع أنّها كانت قد ابتسمت له في مطار مدريد. وعندما شرح لها أمره، ظلَّت، برهةً، صامتةً. ولمّا التمس مساعدتها في تأمين عملٍ له أجابت: " الأمر ليس سهلاً؛ ولكن ارجع في الغد"، ثم أوعزت إلى خادمتها أن تطعمه، وإذ همَّ بمغادرة المنزل، شيَّعته بابتسامةٍ تحاكي ابتسامة مدريد. أمّا هو فكان في توقٍ للاستفسار عن الطفلة، بيدَ أنّ الكلمات تعثَّرت على شفتيه.

وعاد في الغداة. وكان زوج السيّدة قد وجد له عملاً في ورشة بناءٍ، فشكر ومضى. توقّف لحظةً عند الباب، وأوشك أن يسأل:
"كيف حال الصغيرة؟" ولكنّ الكلمات تجمّدت في حلقه... كم من كلماتٍ دنت من شفاهنا، ولم تتجاوزها!

في الخارج، كانت الجموع تنساب في شوارع كاراكاس. ومن فرجة السماء الرحبة المنفسحة خلال الجبال الخضراء، كان النور يتدفّق. وحدّث خورخي نفسه: "اليوم هو الأحد، ولا ريب أنّ أمّي تنتظرني الآن في مدريد". وسمع ذاته يردّد، في صوتٍ خافتٍ: "مدريد، مدريد"...

إنّ العمل في الورشات شاقٌّ، فهل سيقوى "خورخي" على تحمّله طويلاً؟ لقد أرسل بطاقةً إلى والدته في مدريد، ولكنّه لم يتلقَّ جوابًا. طوال أيّام الآحاد الأولى التي قضاها في الغربة، تجوّل عبر شوارع المدينة المتمادية الطول. أمّا الآن، فما إن يبزغ فجر الأحد، حتّى يمضي على الطريق العريض، المنحدر نحو البحر، ويعبر النفق، فيتراءى له، من خلال سفوح الجبال، المحيطُ الممتدّ، ثمّ لا يلبث أن يلمح المطار. وكلّ يوم أحدٍ، يأتي خورخي ويجلس على مقربةٍ من المطار، ويسلخ عطلته محدِّقًا في الطائرات الكبيرة المقلعة، وبين الفينة والأُخرى، يتمتم "مدريد" وكأنّه يتذوّق هذه الكلمة بملء شدقيه.

لقد هجر العمل في الورشات. أوَتدرون بأيّ عملٍ استبدله؟ إنّه، منذ أسبوعين، يكنّس قاعات الانتظار، في مطار كاراكاس. يمرّ الرجال والسيّدات بحقائبهم الجلديّة، وهو يكنّس، ويرفع بين الحين والحين نظره ليتأمّل الطائرات التي تتوقّف أو تلك التي تتأهّب للانطلاق. ومَن يراقبه عن كثبٍ يستطيع رؤية شفتيه ترتجفان مردّدتين: "مدريد، مدريد"!

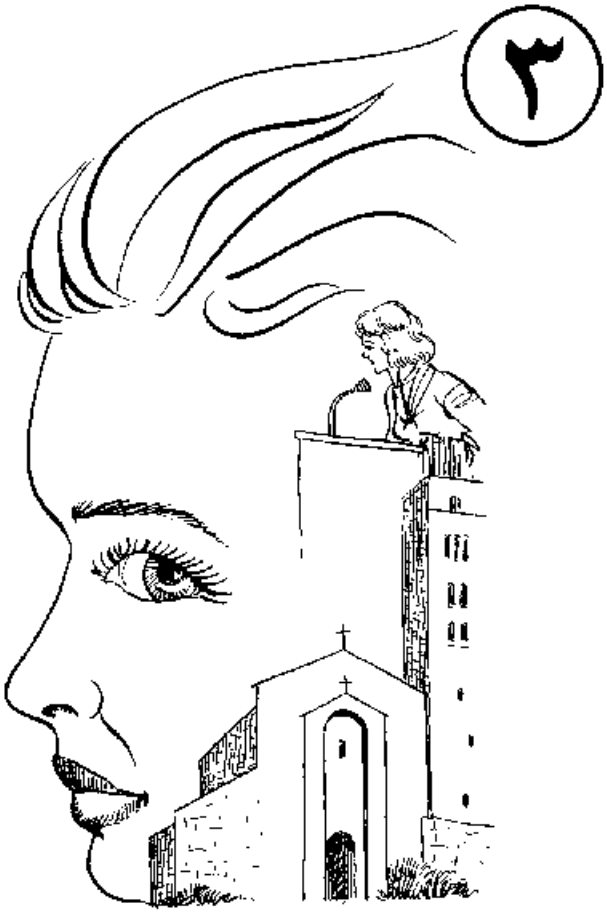

عينا مارينه

عينا ماريز

ليوم الأحد، في القرية، نكهةٌ خاصّةٌ تنسحب على سائر أيّام الأسبوع، ذكرى وانتظارًا. القدّاس الذي يلتقي حوله جميع أهل القرية، صغارهم وكبارهم، في أجمل حللهم وأنظفها، هو محور يوم الأحد ومبدأ مسحته الفريدة.

وفي قرية إ... يُقبل الجميع على القدّاس، في اندفاعٍ وتوقٍ، ليستمعوا إلى عظة الخوري الذي يفلح أحيانًا كثيرةً في تحريك قلوبهم، وربّما في انتزاع بضع عبراتٍ من مآقيهم، خلال دقائق معدوداتٍ، قبل أن تعود أحاديث القرية ومشاغلها وشجونها فتطغى على الأذهان والخواطر. وهم يقبلون على القدّاس، أيضًا، يحدوهم الشوق إلى سماع ماريز تقرأ "الرسائل" بصوتها البلّوري، وإلى التملّي من عينيها اللوزيّتين اللتين، من أَطلّ يومًا على آفاقهما البعيدة، رافقه أسرهما مدى العمر.

ماريز صبيّةٌ رقيقةٌ، في سنٍّ تتأرجح بين المراهقة والشباب، وشعاعٌ من نورٍ يسري في أَحياء القرية ويتسرّب إلى جميع القلوب. ليست بارعة الجمال، ولكنّها حلوةٌ، وحلاوتها تأسر القلوب. قدّها النحيل الممشوق أشبه بساقٍ تحمل وردةً، والوردة التي يحملها قدّ

ماريز وجهٌ يقطر حلاوةً، وجهُ طفلٍ، دقيق القسمات، يظلّله شعرٌ فاحمٌ، وتشيع منه بسمةٌ نديّةٌ تحاكي شعاع الفجر وتُذكّر بتفتّح زهرةٍ، وكأنّها، أبدًا، أوّل بسمةٍ انفرجت عنها شفتاها. أوّل ما يبادرك من ذلك الوجه ذقنٌ على شيءٍ من البروز، وأنفٌ صغيرٌ مختلجٌ، وشامةٌ كأنّها قصيدةٌ ينشدها الخدّ الأسيل، تدلّ على عيني ماريز. أمّا من وقع في ليل عيني ماريز، فهو يتمنّى الاسترسال في محادثتها عن الطقس والمواسم، وعن كلّ شيءٍ وعن لا شيء، علّه يُطيل تلك اللحظة التي فيها يتوقّف الزمن، رهين ليل عينيها اللانهائي. وعندما يودّعها يظلّ يتلفّت أملاً في شعاعٍ آخر منعشٍ من تينك العينين، إلى أن يحجبها منعطف الطريق، ويشبّ الشوق إلى لقياها من جديدٍ، والتحليق في سماء عينيها، إلى ما لا نهاية.

وراء ذلك الوجه الرقيق كانت تختبئ نفسٌ مرهفةٌ كريمةٌ كبيرةٌ، بلا حدود. حضورها كان حضورًا ملائكيًّا يتلاشى معه كلّ حسدٍ وضغينةٍ وشقاقٍ، ويشيع جوًّا من الوئام والمحبّة. مساء الأحد كانت ماريز تشترك بحلبات الرقص، فيتخاطفها الجميع، وتُرضي الجميع، ولا سيّما الفتيات، فهي ما إن تلحظ إحداهنّ وحيدةً حتّى تتظاهر بالتعب كي تتيح لها فرصةً تسعدها.

فلا عجب، إذن، إن تهافت أهل القرية نحو الكنيسة لسماع ماريز وهي تقرأ الرسائل، فتمضي كلّ الأنظار تداعب الرأس المغطّى بالوشاح الأبيض، ويسود صمتٌ متلهّفٌ لسماع الصوت النديّ الذي يترجّع في خرير السواقي، فتحبس الأنفاس، وتنسكب الكلمات جليّةً مفهومةً، ويقبع الجميع في مثل جمود التماثيل، ويُغلق باب الكنيسة

لدرء أيّة نأمةٍ متسرّبةٍ من الخارج، فيتسلّل من تحته شعاع من نــورٍ ملتمسًا نصيبه من المنظر المشوّق.

وذات يومٍ مسّت أشعّة النور شــغاف قلــب مــاريز فــسحرتها وخطفتها من القرية.

كان الكاهن يتحدّث عن تفاني الراهبات اللائي يمضين بعيدًا نحو بلادٍ مجهولةٍ، من أجل العناية بالأطفال، وتخفيــف أعبــاء الأجــساد والنفوس، والأخذ بيد المحرومين والمنبوذين، على غرار يسوع الذي ارتضى الصليب، فداءً للبشر. وعندما انحدر الكاهن من المنبر، دهش الجميع لرؤيتهم ماريز وقد استلّت منديلها وانخرطت في بكاءٍ تمــادى حتّى نهاية القدّاس، وقد عرفوا فيها، من قبلُ، شدّة المراس وســكون النفس. وعندما فتح الباب واندفعت الفتيات خارجًا تُحقــنَ بمــاريز، كانت عيناها، على عادتهما، تتألّقان، وضحكتها الصافية ترنّ، وبعض أنظار الشبّان تتلكّأ عليها خلسةً، ولكنّها كانت قــد عزمــت أمرهــا، وقرّرت مصيرها، ودفعت حياتها في منحًى جديدٍ.

كلمات الكاهن كانت ما برحت أمواجًا تتلاطم فــي داخلهــا، ولا سيّما عندما تكلّم عن المحبّة التي تدفن في مقبرة الخريــف وتمتــزج بالتراب متلاشيةً لتنهض في مجد الحصاد المذهّب. فــالموت لــيس السيّد الأكبر، وإن هو سوى خادم الحياة. والإنسان على نحو ما يدفن حبّة القمح فيظفر منها بحصادٍ سخيٍّ، قد يميت ذاته فتزدهــر حيــاةً دفّاقةً نديّةً. كلمات الكاهن البعيدة الأصداء كان تمتزج فــي داخلهــا بصوت الأرض السحيق الذي قد طالما أصغت إليه في دهشةٍ وحبٍّ.

وقبل أن يؤذن الصَّيْفُ بالرحيل، ارتحلت ماريز كما ينزلق آخر أشعّة المغيب عن ذؤابات التلال. مضت نحو ديرٍ قصيٍّ حيث انضمّت إلى أُخرياتٍ كثيراتٍ جذبهنّ نداء التضحية، وعكفن على تعلّم بثّ السعادة في صدور البائسين.

في القرية لم يلحظ أحدٌ رحيلها حتّى صباح الأحد، حين امتلأت الكنيسة بغيابها. خيّل للبعض أنّ طارئًا عاقها عن الحضور المبكّر، وبات كثيرون يأملون أن ينفرج عنها الباب بين لحظةٍ وأُخرى، إلى أن اعتلى الكاهن المنبر، فوقع النبأ من علُ مباغتًا، قاطعًا، جارحًا: "أحيطكم علمًا، إخوتي، بأنّ ماريز قد كرّست نفسها لخدمة الله في فقرائه، وهي تطلب منكم أن تصلّوا من أجلها". وكان الذهول الذي ران، إثر هذا الإعلان، كأنّه اعتراضٌ يجأر: "هذا غير ممكنٍ، هراءٌ، وماذا عنّا نحن، إذن؟". وكان لا بدّ للكاهن من الإفاضة في تبرير رحيل ماريز والإشادة باستجابتها إلى نداء الحبّ السامي. وامتدّت الأيادي إلى الجيوب، وتبلّلت المناديل. وبعد القدّاس تشكّلت في الطرقات جماعاتٌ صغيرةٌ استحوذ عليها الوجوم والتساؤل، ولكن سرعان ما تفرّقت، وهرع كلٌّ إلى منزله، وفي حلقه غصّةٌ.

وظلّت قرية إ... قابعةً في الوادي، تنسكب عليها شمس الخريف، فلا تفلح في تدفئتها. فهي ظامئةٌ إلى دفء عيني ماريز. واستقرّ الحزن في قلوبٍ كثيرةٍ، فماريز قد رحلت، ولا سبيل حتّى إلى تكريمها بباقة زهورٍ، كتلك التي كانت تودع خلسةً على نافذتها عند الغسق. وبرحيل ماريز، ارتحل كلّ جميلٍ، وتاهت عيون قرية إ...

أيّ دروبٍ تلك التي ستغشاها عينا ماريز، ناثرةً فيها نورًا طليًّا كنور شمس الربيع الفتيّة، فيما يداها مشرعتان مثل حقول قمحٍ لا نهاية لها!

عينا ماريز تمتدّان إلى بلادٍ مجهولةٍ، وتحطّان في ألمٍ وحبٍّ على آلامها، حيث الرجال بائسون، والنساء تكدحن أكثر من البهائم، والأولاد يمرّون بالحياة عبورًا خاطفًا حزينًا. إنّها تلفّهم جميعًا ببسمتها وحنانها، فيما ترتعش يداها، اللتان ما جسر أحدٌ على ضمّهما قطّ، برغبة الخدمة، ويختلج كلّ جسمها على موسيقى نفسها المستمدّة من عالمٍ آخر. إنّها تسعى بتوقٍ إلى أولئك الصغار المفتقرين إلى أخت أكبر، وربّما إلى أمٍّ أُخرى. وقلبها أفسح من الدنيا.

ماريز في الدير، والدير منزلٌ كبيرٌ باردٌ، غالبًا ما يطبق عليه الصمت، كي ينصرف القلب إلى إذكاء شعلة الحبّ. وفيه ماريز قد تعلّمت، في سرعةٍ وحميّةٍ، ضمد الجراح وبثّ الفرح، وباتت متوثّبةً للانطلاق.

بيد أن قصّتكِ حزينةٌ، يا ماريز، فلن يتهيّأ لكِ، يومًا، مشاهدة البلاد النائية التي طارت إليها أحلامك، ولن تخفق تحت خطواتك أمواج الحماس التي تمضي إلى أقاصي الأرض، ولن يكتب للصغار هناك رؤية أنفسهم في ليل عينيك، ولن تطأ قدماك الرشيقتان أراضي البؤس، ولن تتدفّق التعزية يومًا من يديك!

فقد ألمّ بك مرضٌ شديد الوطأة، رماكِ أسيرة الفراش، حيث كنت ما زلت ترقدين حين حلّ يوم الرحيل الأكبر. ومضت الأخريات،

وبقيتِ أنتِ، وستبقين أبدًا، فالرحيل وقفٌ على الأشدّاء وأنت هزيلةٌ. ماذا سيكون مصيركِ يا ابنة قرية إ..؟

في غضون ذلك، تقرّر لماريز مصيرٌ لم تتوقّعه، فقد توفّيت الراهبة العجوز التي كانت تحرس بوّابة الدير، فارتأت الرئيسة أن تضطلع ماريز بهذه المهمّة، إذ إنّ قواها الخائرة لا تتيح لها الرحيل إلى بلاد الشقاء. وجاءت ماريز، فاحتلّت، إلى جوار بوّابة الدير، غرفةً ضيّقةً، حُشِر فيها سريرٌ صغيرٌ، ومنضدة خياطةٍ، ورفٌّ انتظم فوقه بضعة كتب. ونُزِعت من الجدران الصور الخاصّة بالعجوز الراحلة. غير أنّ ماريز ورثت منها سلّةً تحتوي أدوات الخياطة، وبضعة كتبٍ تقويةٍ تكاد تهترئ، ورائحة العتق التي عشّشت في جوّ الغرفة طوال السنوات الخمسين التي قضتها الراحلة فيها.

من كان، بعد ذلك، في شوقٍ إلى رؤية ماريز، تعيّن عليه قرع باب الدير، فيتناهى إلى سمعه دنوّ خطواتٍ رشيقةٍ خفيفة الوطء. ولدى فتح الباب، يشرق عليه وجه ماريز وصوتها الشفّاف. غير أنّ ثوبها الرهبانيّ الطويل الصفيق قد أخفى قدّها النحيل الممشوق، وألقت قبّعتها العريضةُ الكثيرَ من الظلّ على محيّاها. وبقيت عيناها، وحدهما، هوّةً من السحر والأسرار، ولكن لا بدّ من التحديق فيهما للغرق في دوار ليلهما، وقلّما يتوقّف أحدٌ ليمخر في عباب ذلك الليل.

أمسى فتح الباب هو مهمّة ماريز، وكم من الأخوات الراهبات قد مررنَ عبرَه، ولكنّهنّ، دائمًا، في عجلةٍ من أمرهنّ، لا فسحة لديهنّ لتأمّل الباب أو للتحديق في تلك المكلّفة بفتحه. فما شأن الباب أو

حارسته، وفي الخاطر تموج الأحلام، وتتوثّب رغبات الانطلاق؟ ولو أنّهن حدّقن في كلّ ما يعترض طريقهنّ من عيونٍ، لأفضيْنَ إلى الضياع، ولذهلنَ عن جلائل الأمور التي تنسج جِدّ الحياة.

ومع ذلك، كانت ماريز تؤدّي مهمّة حراسة الباب الموكلة إليها في فرحٍ وحماسٍ.

كانت تسعد لاستقبال كلّ طارقٍ كما لو كان لها صديقًا قديمًا أو أخًا، ترنو إليه في عطفٍ، وتُنشِد له الترحيب بصوتها الساحر. لقد انتظرت جميع القادمين، في شوق، وواكبت كلاًّ منهم في أعماقها. ولكنّ أحدًا منهم لم يحدجها، يومًا، بنظرةٍ، ولا أحد استشفّ، من خلال عيني ماريز، سماء نفسه.

شمس الربيع ما زالت تنشر أشعّتها على وادي قرية إ...! غير أنَّ الكاهن العجوز قد توفيّ، والشبّان الذين كانوا ينشدون، يومًا، عيني ماريز قابعون عند عتبات منازلهم، يلتمسون من أولى أشعّة الربيع بعض دفءٍ لأجسامهم الهرمة. وربّما كانت أنظارهم التي ترقبُ الثرى، شاردةً وراء حلمٍ في عيني ماريز. قد يُؤتى على ذكر اسمها في السهرات، أحيانًا، وتدور التكهّنات حول فعالها ومصيرها، ويستفسر الصغار الذين لم يعرفوها عن سحنتها وملامحها، في حين يمسح عجوزٌ، خلسةً، دمعةً لم يقوَ على حبسها.

قد يخطر ببال أحدهم أن يقرع باب الدير، ويلتمس زيارة معبده، كي يحمل ماريز على الكلام، فيستحمّ في عينيها ويستسلم لسحر صوتها.

غير أنّ الوقت قد فات. فلو أنّه فعل ذلك، لأسبوعٍ مضى، لقدمت

عجوزٌ ضئيلة الجسم، وفتحت له الباب، كلّمته في عذوبةٍ لن ينسى يومًا، جرسها. ولو هو أنعم النظر، آنذاك، تحت القبّعة البيضاء العريضة، لطالعه، من خلال غضونٍ قليلةٍ، وجه فتاةٍ تنيره بسمة السعادة الأولى، ولسحرته عينا ماريز.

ولكن، منذ أيّامٍ، وجدوها في الصباح ملقاةً خلف الباب باردةً مثل حجر الهيكل، والباب منفرجٌ قليلاً. ولم يعرف أحدٌ لأيّ زائرٍ قد فتحته قبل أن تمضي هي في رحلةٍ لا تنتهي. ولكن، لا بدّ أنّ هذا الزائر قد حدّق مليًّا في ماريز، فعيناها الشاخصتان مفعمتان بضباب الليل، ولا بدّ أنّه اصطحب معه نجوم أنظارها، وليل عينيها العذب، ومن خلال فمها المفتوح استلّ صوتها المشرق المضيء.

إنّمَا حذارِ أن تُنبئوا أهل قرية إ...، في أثناء قدّاس الأحد القادم، أنّ عيني ماريز قد أشاحتا بأنظارهما عن الأرض، فلن يصدّقوا، مثلما هم لا يصدّقون أنّ القمح المبذور يموت في تشرين عندما يغمره الثلج، ولديهم على ذلك دليلٌ قاطعٌ، فمن تحت باب الكنيسة ما زال شعاع نورٍ يتسرّب في فضولٍ وعنادٍ.

٤

النسغ النازف

النسغ النازف

لجم القطار اندفاعه وراح يحبو وئيدًا إلى أن توقّف أمام عمود المحطّة، واندفع من أبوابه المسافرون يقلّون أمتعتهم، وهم لم يتحرّروا، بعدُ، تمامًا، من ربقة النعاس. إلاّ أنّ لسعة البرد التي كان يطوف بها غمام الصباح قد أسهمت في إيقاظهم منذ خطواتهم الأولى على الرصيف ا لمزدحم.

وبرز بين المسافرين شابٌّ شامخ القامة، طويل الخطوات بطيئها، يعتمر قبّعةً تُلفت النظر، ويحمل قمطرًا عسكريّ اللون. إنّه أوغسطين القادم إلى باريس، بعد أن هجر قريته، مساء أمس، ساعة كانت الشمس تودّع بأشعتها الغاربة ذؤابات أشجار الصنوبر.

لقد كان "أوغسطين"، حتّى عشيّة الأمس، صمّاغًا، أي واحدًا من أولئك الرجال الذين يُحدثون في جذوع أشجار الصنوبر جروحًا تنزف صمغًا، ويثبتون تحتها قوارير، ثمَّ يمرّون في الموسم لجني الصمغ. فيما مضى، كانت الغابات تردّد أهازيجهم، سحابة النهار، وكان قطارٌ صغيرٌ يقدم لينقل الصمغ والأخشاب. يومها كانت الحياة تدبّ في غابات الصنوبر. إلا أنّها، في غضون السنوات الأخيرة قد أخلدت إلى سباتٍ عميقٍ، فليس للصمغ من مشترٍ، والقطار كفّ عن

زيارة الغابة، والناس قد هاجروا، بحيث بات أوغسطين وحيدًا في السنة الفائتة، في أعماق الغابات الظليلة الساكنة، لا يؤنس وحدته سوى أملٍ في عودة جانيت. ولكن حين تهجر الحياةُ قريةً، تحسّ الفتيات ذلك بفطرتهنّ الأكيدة، وقد كَانت فتيات القرية جميعهنّ قد أمَمن المدينة، وسرعان ما ورد نبأ زواج جانيت بشرطيٍّ.

يومها، توغّل أوغسطين عميقًا بين جموع أشجار الصنوبر الجميلة، تتموّج فوق رأسه، بين الأفنان السامقة، موسيقى عذبةٌ قد طالما أشاعت في صدره موجاتٍ من الطرب. فليس بين الموسيقيّين من تعنو له الأنغام كما تعنو ضفائر الصنوبر لقوس النسيم. ويومها أيضًا، اعتلى أوغسطين هضبةً تطلّ على بحر الغابة، حيث يمتزج الأَخضر الداكن بالأسود، وحيث كانت أمواج الريح تنساب فوق قمم الأشجار الليِّنة، واستقرّ عزمه على الهجرة شطر غابة الآدميّين.

غادر أوغسطين غابة الصنوبر بخطواته الطويلة، ولم يجُل بخاطره، وهو يخرج من الغابة، أنّه ماضٍ صوب لقاءٍ شاملٍ، وأنّ غابة البشر هي أيضًا تئنّ وتشدو، وأنّها تفتقر إلى صمّاغِين يجنون النسغ الجوهريّ.

عمل نجّارًا، ولم يكن الغبار والصخب بقادرين على حجب سعادته بلقاء رائحة الخشب الحيّة، من جديدٍ، وبالتقاطه، أحيانًا، بعض دموع صمغٍ من جذع صنوبرٍ ما زال طريًّا.

زملاؤه نظروا إليه نظرتهم إلى "فلاّحٍ" بسبب ساقيه الطويلتين البطيئي الحركة، وقبّعته الغريبة، ولكنّهم ما لبثوا أنّ أحبّوه، إذ كان

يشيع من كلّ كيانه شعورٌ بالسلام، سلام غابات الصنوبر الراقدة هناك، تداعبها الريح، وسلام أجيالٍ من الناس البسطاء الذين تغذّوا بالصمت والفقر والمشاركة.

وحين طُلب منه، ذات مساءٍ، الانضمام إلى مظاهرة، دفاعًا عن الجمهوريّة، بدا له أنّ الناس من حوله مفرطو الانفعال، إلاّ أنّه كان قد اطّلع من الصحف على ما يجري في الجزائر، وعلى أمورٍ أُخرى كثيرةٍ. فاكتفى بهزّ رأسه، معربًا عن موافقته، وفي العشيّة التحق بالرفاق في هدوءٍ، وهو غير مدركٍ أنّه مقبل على العالم الفسيح.

وسط الشارع العريض، كانت الجماهير كثيفةً؟ تضجّ كالغابات في أمسيات الصيف، عندما تداهمها العاصفة، وخُيّل إليه رؤية ريحٍ تسري فوق أمواج الرؤوس المشرئبّة. هتافاتٌ وخطاباتٌ، ورجالٌ يواجهون المخاطر، وبلدٌ حيٌّ بأكمله يتعرّض للتهديد. كانت الجماهير تتقدّم وتتراجع أحيانًا، تمضي يمنةً ويسارًا، وكأنّها فوق بحرٍ يستيقظ. وكان شعور إخاءٍ شاملٍ يجتاح صدر أوغسطين، وتتراءى لخياله جماعات الصنوبر الرائعة المنتصبة هناك، إلى جوار القرية، في حين أنّ الغابة الحيّة، التي انضوى إلى جمعها، كانت تسير في خطًى وئيدةٍ وتنشد الأهازيج.

وفجأةً أطلق رجال الشرطة النار، وتعالت الصيحات، واشتدّ التزاحم، وارتمى كثيرون أرضًا، وهاجت الأحقاد، واختلط الحابل بالنابل، بحيث تعذّر الفرار، وتهاوت الأجساد على الأجساد يفوح منها الدفء ورائحة العرق والدم، وأغمض الموت أو الرعب أو الصدمة عيونًا كثيرةً.

عندما فتح أوغسطين عينيه رأى على مقربةٍ من وجهه وجه فتاةٍ سوداء، تشعّ منه عينان واسعتان، كان قد سقط عليها بكلّ قامته. كان خدّها قد جُرح، فسال منه النجيع على مخمل البشرة الداكنة.

– هل آلمتك؟ إنّني شديد الأسف. مهلاً، لديّ منديلٌ نظيفٌ.

وبيدٍ مرتجفةٍ مسح الجرح النازف. أمّا هي فكانت تردّد:

– الأمر بسيطٌ لا ينطوي على خطورةٍ.

كان الغضب يتأجّج في صدر الجمهور المتراجع، والعنف يتصاعد إلى الرؤوس، مثلما تلتهب النار في ضفائر أشجار الصنوبر أيّام الصيف القائظة الهجير.

ثمّ أنهض أوغسطين الفتاة وأمسك بيدها، وقادها على مهلٍ إلى حانةٍ في شارعٍ ضيّقٍ استطاع أن يقدّم لها فيها كأسًا أنعشتها. وكانت الجماهير تتشتّت، والليل الثقيل يهوي على جميع الغابات وعلى المدينة المصابة بالحمّى.

رافق أوغسطين "لينا" حتّى مدخل بناءٍ متداعٍ وودّعها، وكان لا بدّ له من مسيرة عشر دقائق أُخرى، قبل بلوغ غرفته القائمة على سطح بناءٍ متواضعٍ. وفي مساء اليوم التالي، جاء مستفسرًا عنها، فقيل له إنّها خرجت، وهي تبدو على أحسن حالٍ، فاستأنف سيره المتأنّي.

وعشيّة يوم السبت، شاهدها تهبط من المترو في أقصى المحطّة، وراقب مشيتها الليّنة التي كانت تشيع مرونةً تتموّج بها قامتها الطويلة من ساقيها حتّى قمّة شعرها الجعد، فتخيّل ضفائر أشجار الصنوبر

المشرئبّة نحو السماء. وبخطواتٍ سريعةٍ تقدّمها وفتح لها الباب، وفيمَا كانت تقول له: "آه أهذا أنت؟ شكرًا"، كانت عيناه تغرقان في غور ليلٍ لا قرار له.

وأنعمت هي النظر في أوغسطين. كان وجهه يشيع سلامًا غالبًا ما تقفر منه نظرات الرجال المنطوية على اقتحامٍ ماكرٍ. عيناه ما كانتا تحاولان استلابًا ولا افتراسًا. ومرّةً أُخرى، شكرت له صنيعه في تلك الليلة التي التقيا فيها للمرّة الأولى، ولم تمانع في مرافقته لها. وكان هو يؤنس، إلى جوارها، فرحًا يتدفّق في حنايا صدره. لقد كانت أشبه بزهرةٍ داكنةٍ من أعماق الدنيا، كتلك التي كان يتخيّلها في ظلال غابات الصنوبر. وشعرها الجعد كان يحاكي زغب نبتات الصنوبر المتوثّبة نحو الشمس المتصدّية للنسيم.

وفي الغد التقيا من جديدٍ، فحدّثها عن المعمل وعن غابات الصنوبر والقرية. كانت هي قد فقدت والدَيها، منذ فترةٍ بعيدةٍ، فور وصولها إلى فرنسا. كانت قادمةً من داهومي، ولكنّها لم تكن تذكر كيف تمَّ ذلك. هناك أيضًا غاباتٌ قاتمةٌ. وكان أوغسطين يروي لها حكاية الموسيقى العذبة المنبثقة من ظلال الغابة وأنوارها ورائحة الصمغ المسكرة.

وتوالت لقاءاتهما، كلّ يوم أحدٍ، يتبادلان الماضي والحاضر والمستقبل. وفي إحدى الأمسيات قرّرا، ببساطة، أن يتزوّجا.

لن يكون هناك حشدٌ من الناس: أحد رفاق أوغسطين في المعمل، وحارسة البناء الذي تقطن فيه لينا هما شاهدا القران. هي ابتاعت معطفًا أبيض وهو ربطة عنق أنيقةً.

– أتذكرين، يا لينا، ليلة المظاهرة؟

– أجل، بالطبع.

يومها بدا لهما أنّ الأرض بأسرها تعقد قرانها فوق المحيطات والأحقاد والألوان. كانا وحيدين، ولكن عندما أمسك أوغسطين يد لينا المتغضّنة، يدًا بلون الأرض الطيّبة، براحتها البيضاء الضاربة على اللون الزهريّ، كان قلبه من الاتّساع بحيث يغمر بحبّه البشريّة كلّها جمعاء.

في أعقاب حفلة القران، رجعا إلى مسرح المظاهرة، ثمّ إلى الحانة التي احتست فيها لينا كأسًا منعشةً، ثمّ قفلا عائدين الهوينى. ما أعذب استعادة دروب الحبّ الأولى! وبين الفينة والفينة، كانا يتوقّفان ليتأمّل أحدهما الآخر مبتسمين. غابة الصنوبر، وغابة الناس، وأناشيد الريح كلّها كانت تلتقي في محيّا لينا الذي كان يحتوي أيضًا سرّ الليل.

عند حلول الصيف عزما على قضاء عطلتهما في بلد أوغسطين. ومنذ تلك اللحظة غاص فكره في دفء غابة الصنوبر: سيُريها مسالك الغابة، ويُسمعها أناشيد الريح، وربّما سيقودها إلى الكوخ في إحدى الليالي العاصفة. ولينا، أيضًا كانت تسرح بخيالها. في المساء، لدى عودتهما من المعمل، كانا يتبادلان الأحلام، ويسترسلان في الحديث. وكان أوغسطين يقول: "ليت جميع الرفاق يقضون هناك بضعة أشهرٍ كلّ سنةٍ... وأيّة عافيةٍ سينعم بها الأولاد هناك. آه! ليت الصمغ يُباع من جديدٍ".

وكان قد نمى إلى أهل القرية أنّ أوغسطين قد تزوّج "عبدةً

سوداء" فكانوا يعلّقون مثرثرين: "مع أنّه كان هنا شابًّا عاقلاً، حسن السلوك، جادًّا. لا ريب أنّ المدينة قد ذهبت بلبّه. فكم من الأمور تحدث هناك".

عندما وصلا إلى القرية تحوّل عنهما أهلها. النسوة كنّ يبتعدنَ عنهما وعلى شفاههنّ ابتسامات ازدراء، في حين يقتصر الرجال على تحيّةٍ بالرأس تبعث القشعريرة في جسم أوغسطين، وهو يحاول الدنوّ منهم، حسب عهده بهم في السابق.

كانت الأشواك قد أخذت تتنامى في غابة الصنوبر، إلاّ أنّ معزوفة الظلال والضياء والأطياب والأصوات والأشجار والريح قد استبدّت بأوغسطين من جديدٍ، وانتابت لينا منها أيضًا رعشةٌ. ومنذ ليلة وصولهما هبّت الريح وكأنّها تؤدّي لهما تحيّةً، فسارا طويلاً، وانساب شبح لينا المرن الداكن بين أشجار الصنوبر.

وفي الغداة حاول أوغسطين تحطيم جدار الصمت من حوله، ولكنّه كان يصادف، باستمرارٍ، عبارات تأنيبٍ وسخريّةٍ: "ألم تجد أيّة فتاةٍ بيضاء؟". وكانت لينا تحسّ نظرات الازدراء والتهكّم تتغرس في جسدها.

في المساء حاولا استئناف التنزّه بين أشجار الصنوبر، إلاّ أنّهما ما عادا يريان شيئًا ولا يسمعان شيئًا. فالإنسان هو مدى الإنسان الأكبر. وعشيّة اليوم الثالث، استقلاّ القطار عائدين في صمتٍ. وحده أوغسطين تأمّل غلالة أشجار الصنوبر القاتمة وهي تتلاشى في الأفق.

وأفاد الزوجان ممّا تبقّى لهما من عطلةٍ لتدبير منزلهما الصغير

حيث كان الجيران ورفاق أوغسطين يحبّون المجيء ويلقون جوًّا دافئًا. كان أوغسطين يقوم بكلّ أعمال النجارة، فيصنع رفوفًا يثبّتها في الجدران، وسرير طفلٍ... أمّا لينا فكانت تأسر القلوب ببسمتها الصامتة.

في الصيف التالي دخل المنزلَ الصغير مشروع طموحٍ جاء به أوغسطين، ربّما كي يمحو به جراح سفرته إلى قريته.

– أيسرّك يا لينا أن نعمل بضع سنواتٍ في داهومي؟ هناك في الغابات عملٌ كثيرٌ ولي زميلٌ صديقٌ سيذهب أيضًا، وهو يعرف، هناك، متعهّدًا.

وفيما كان يتكلّم كانت شراراتٌ تومض في عينيه، وكلّ كيانه يرتعش لنداءاتٍ من الأعماق. ويومًا إثر يومٍ كانا بخيالهما يقطعان من السفرة العتيدة مسافاتٍ جديدةً. ما عادا يعيشان في غرفتهما الصغيرة بل في جوف الغابة ذات الأشجار الباسقة الجبّارة. وكانا يشركان بأحلامهما كلّ الأصدقاء الذين يزورونهما. ولم يثنهما عن عزمهما بعض اعتراضاتٍ مثل ذاك الذي قاله أحد زملاء المعمل: "ما لك يا أوغسطين والتيه في تلك البلاد النائية، ولديك هنا كلّ أسباب السعادة؟".

وذات يومٍ، جاءا بحقيبتين كبيرتين أودعاهما كلّ ما يملكان، تأهّبًا للسفر في فجر الغد. وبعد أيّامٍ من التأرجح فوق اختلاج اللجّة، ومن دأب طاقم السفينة، ومن نكاتٍ كان يداعب بها البحّارون لينا، أُعلن، ذات عصرٍ، عن قرب الوصول، وتراءى من بعيدٍ خطّ الشاطئ. كان أوغسطين طربًا لرؤيته، أمّا لينا فظلّت إلى جواره واجمةً.

ومضت بهما سيّارة شحن، عبر أسواق الدساكر الغاصّة بجماهير مزركشة كثيفة كالغابات. وحلاًّ في موقعٍ عند مدخل الغابة. وما لبثت أن سارت الحياة رتيبةً، جميع أيّامها متماثلةٌ تحت سماءٍ قاسيةٍ.

غابات الصنوبر في بلد أوغسطين كانت عالمًا آخر مختلفًا: فهنا الأشجار مفرطة الكبر، والظلال شديدة الكثافة، والأشواك المتشابكة تنطوي على المهالك. بيد أنّ صمتًا أثقل من عبء الغابة كان يترسّخ، يومًا فيومًا، بين أوغسطين ولينا التي اختلفت أحوالها: أهو الحنين، أم الخوف، أم السأم؟ عيناها الواسعتان كانتا تسرحان أحيانًا، بعيدًا بعيدًا، تاركتين أوغسطين وحيدًا. كانت تحاكي عمق الليل الذي لا نفاذ إلى كثافته.

لِمَ تسري الشروخ باستمرارٍ على الأرض بين الناس والبلدان والأجناس وحتّى خفايا القلوب؟

ذات مساء، وجد أوغسطين البيت خاليًا، فهرع إلى رئيس الورشة، وأُحيطت الشرطة بالأمر علمًا. ولكنّ أحدًا لم يرَ شيئًا. ولم يفلح أحدٌ في هتك النقاب عن سرّ اختفاء لينا. أهي فرَّت أم اختُطفت؟ لا سبيل إلى استجلاء الحقيقة.

بات أوغسطين يقضي لياليه خارج المنزل منصتًا إلى الليل: صيحات حيواناتٍ في البعيد، وظلامٌ مشبعٌ بالرطوبة، والسماء مثل قبّةٍ مرهقة. لقد غدا الليل عدوّه، وجفاه النوم، واعتراه الهزال، وطفق يطوف الغابة بحثًا لا طائل تحته.

وذات يومٍ، ربّت رئيس الورشة على كتفه قائلاً: "لقد ساءت

حالك كثيرًا يا أوغسطين. إنّك زميلٌ طيّبٌ، وبودّي الاحتفاظ بك، ولكنّك تضمحلّ، يومًا فيومًا. إنّ زوجتك لن تعود، وحريٌّ بك أن تقفل راجعًا إلى الوطن".

وأجال أوغسطين بصره بالغابة، وأكواخ العمّال، والأرض اليباب، وقال:

– لم يبقَ لي وطنٌ".

بعد أشهرٍ معدودةٍ فارق أوغسطين الحياة. أمام قبره تمتم رئيس الورشة: "آه! ليت هناك الكثيرين من نمط أوغسطين".

هناك، في قريته، قرب غابة الصنوبر، لم يعلم أحدٌ بموته. وجروح أشجار الصنوبر كانت تلتئم على آخر دموع الصمغ المتيبّسة.

غدًا، عندما سيبلغ النبأ مسامع أهل القرية سيقولون: "وما عساه راح يفعل هناك مع عبدته السوداء؟".

٥

مرض الحديد

مرض الحديد

حدث ذلك في باريس في الثلاثين من شهر أيّار عام ٢٠٩٥.

كانت أولى بشائر الربيع تبسط فوق مدينة النور رداءها اللازورديّ المتألّق، وقد انتشر مئات السائحين القادمين من مختلف بقاع الدنيا عند أقدام برج إيفل، ينعمون بالشمس والربيع ويلتقطون صورًا يثبّتون فيها الذكريات.

وبحلول الساعة الرابعة عشرة، موعد استئناف العمل، في أعقاب استراحة الظهيرة، اشتدّ الزحام وباتت المدينة أشبه بخليّة نحلٍ هائجةٍ، في حين كانت الإذاعات والهواتف وأجهزة التيلكس والمطابع ترجّع أصداء الصفقات وأعمال العنف والمماحكات السياسيّة، في مثل شبكة عنكبوتٍ ممدودةٍ فوق البسيطة كلّها.

في خضمّ هذا الدويّ المجنون، مَن كان يتخيّل أنّ الحياة ستتعثّر فجأةً وتهمد؟ ففي الدقيقة الخامسة والعشرين، بعد الساعة الرابعة عشرة، رفع أحد السائحين نظّارتيه عن عينيه وحملق مذهولاً وصاح في ارتعادٍ، وهو يشير إلى برج إيفل المارد، وتطلّعت الأبصار في اتّجاه إصبعه وتعالت من بعض النسوة صيحات هلعٍ. خشي البعض

أن يكونوا فريسة هلوسةٍ ففركوا عيونهم وأنعموا النظر من جديدٍ... لم يكن للريبة مجالٌ... الواقع ماثلٌ لا مفرّ منه...

كانت قمّة البرج قد أخذت تميل في تؤدة، منحنيةً مثل شمعةٍ صلتها حرارةٌ شديدةٌ، وأخذ الناس يتراكضون بعيدًا عن كتلة الحديد الجبّارة، في حين كان السائحون داخل البرج يتزاحمون في الهبوط، وقد ذهب الهلع بألبابهم. وحاول موظّفٌ، في مكتبٍ إداريٍّ مجاورٍ، إحاطة الوزارة علمًا، بواسطة الهاتف، غير أنّ نداءه قوبل بصمتٍ مطبقٍ، وعبثًا كرَّر محاولةَ تشكيل الرقم. ولكنّ السلك بات ميتًا لا يتسرّب منه أيّ حسٍّ أو نأمةٍ، ثمّ ما لبث أن امتنع قرص الهاتف عن الدوران.

وكان رجال الأمن قد أوقفوا السير إلى جوار البرج الذي بات الجميع يتوقّعون هبوطه الرهيب بين لحظةٍ وأُخرى، بيد أنّه بعد أن استمرّ منحنيًا في جلالٍ، هوى في تؤدةٍ على نفسه وكأنّه جملٌ يقعي.

وهمّ شرطيٌّ أن ينطلق بدرّاجته النارية، ولكنّها أبت الردّ على محاولاته. ثمّ ما لبث أن أفاق أحد الفضوليّين المتجمهرين حوالي البرج من ذهوله فصاح: " ألا يبدو لكم أنّ صمتًا رهيبًا غير مألوفٍ يسود؟". وسرت قشعريرةٌ في أوصال جميع الحاضرين، فقد كان الصمت متأمّلاً، رهيبًا، كأنّه صمت قبرٍ، وحتّى طنين المواصلات من الشوارع البعيدة قد تلاشى. ومرّ عصفورٌ مطلقًا صيحة خوفٍ استأثرت بانتباه الجميع، إذ كانت هي الصوت الوحيد الذي مزّق الصمت المطبق.

واكتظّت الطرقات بالسيّارات التي توقّفت، فجأةً، عن الحركة، على نحوٍ غريبٍ لا يُفسّر، رافضةً الاستجابة إلى جميع محاولات سائقيها. وغصّت محطّات المترو بالناس المذهولين، إزاء الحافلات التي أبت هي أيضًا أن تتحرّك. وعرا الشحوب العديدين من الرجال، فيما انهارت أعصاب نسوةٍ كثيرات. ونكزت امرأةٌ بمرفقها رجلاً واقفًا إلى جوارها، مشيرةً إلى بنطاله الذي كان قد هوى، فرفعه بكلتا يديه، خجلاً، و لكنّه عجز عن تثبيته بحمّالاته التي باتت كالورق ليّنةً هشّةً. وتلفّت حواليه فرأى كثيرين يواجهون مثل حَرَجه.

وتعالت من بين الحضور صرخةٌ تقول: "إنّها أشعّة الموت. لا بدّ أنّ سلاحًا سريًّا قد أُطلق من مكانٍ مجهولٍ فأفسد المعادن جميعها". واستشرى الرعب بين الصفوف التي شهدت تراكضًا مذعورًا في كلّ اتّجاه. وحار الناس كيف يعودون إلى منازلهم، إذ أمست كل وسائل النقل عاجزةً، وحتّى الدرّاجات قد هوت عجلاتها ومقاودها.

ولفتت امرأةٌ نظر كاهنٍ إلى الصليب المثبت في عروته، فإذا به يذوب وينسكب على القماش، وهتفت مرتعدةً: "حتّى الصلبان! يا إلهي، لا بدّ أنّه عمل الشيطان".

ورانت رهبة الصمت، أكثر فأكثر وقرًا على جوٍّ يرتعش بالرعب. وبدت باريس كواحدةٍ من تلك المدن العتيقة الدارسة القابعة منذ ألوف السنين، في حنينٍ إلى عودة قاطنيها وإلى صخبهم. لا بل إنّ كثيرين ممّن كانوا من قبلُ يضيقون ذرعًا بالضجيج، شدّهم الحنين إليه، بعد أن ذاقوا طعم الصمت المميت. ولكن ما الذي كان يجري

في المدن الأُخرى؟ سرٌّ كان من العسير استجلاؤه، بعد إفلاس جميع وسائل الاتّصال والمواصلات.

وأخذت المعادن تتفتّت، شيئًا فشيئًا، وتتناثر في مثل دقيقٍ أصفر، وراحت النوافذ والأبواب تهوي وقد تراخت مفاصلها. وقدح الكبار أفكارَهم بحثًا عمّا يثبّتونها به، في حين نشط الأولاد للظفر بما يصلح لذلك، وأمسى الخشب ثمينًا فجأةً. وللمرّة الأولى خرج سكّان الأبنية الكبيرة إلى مساطح الأدراج، وإلى عتبات منازلهم لتجاذب الأحاديث والآراء مع جيرانٍ لم يكلّموهم منذ سنوات.

مساء ذلك اليوم، وفي ساعةٍ يستحيل تحديدها على وجه الدقّة، بسبب توقّف الساعات، التأمت الحكومة في القصر الجمهوري الذي أُضيء بواسطة مصابيح خشبيّة وشموع، وأعلن رئيس الجمهوريّة أنّ الوضع بالغ الخطورة، فلا بدّ من مواجهته بكلّ وسيلةٍ ممكنةٍ، في حين أفاض وزراء الداخليّة والدفاع والمواصلات في الكشف عن ضآلة الوسائل المتوفّرة.

وأعلنت الحكومة التعبئة العامّة، وأهابت بالمواطنين جميعًا أن يبرهنوا عن الجرأة والنظام والتضامن، ويظلّوا متأهّبين للعمل بالمقرّرات التي ستبلّغ بواسطة المخافر ورؤساء البلديّات، وأمرت بمصادرة الخيول والبغال والحمير والأحذية، وأوعزت إلى رجال الشرطة استحداث ترسانةٍ جديدةٍ من الأسلحة الدفاعيّة والهجوميّة التي ما برحت ممكنةً، كالهراوات والمقاليع وما شابهها، وقد طُلِب من كلّ مواطنٍ العمل على نقل هذه التوجيهات والأوامر إلى أكبر عدد ممكنٍ يسعه الاتّصال بهم.

أمام القصر الجمهوريّ حُشدت الخيول التي حفيت من الحدوات قوائمها، فيما دأب الموظّفون والسكرتيرات على كتابة ونسخ بلاغاتٍ وأوامر كانت تسلّم، أوّلاً بأوّلٍ، إلى الفرسان الواقفين متأهّبين، فيمضون بها بعيدًا، إلى جميع أنحاء البلاد، فيما كانت اللجان عاكفةً على استنباط أفضل الذرائع للحفاظ على الاتصال بسائر المدن والقرى، وبالدول المجاورة، ولتوفير الموادّ التموينيّة التي أصبح تعذّر وصولها قضيّةً شائكةً تقضّ مضاجع المسؤولين والمواطنين على السواء.

وهبط الليل على العاصمة، فسالت العتمة في الشوارع والأزقّة لا يمزّقها سوى لهب الشموع المتراقص عند النوافذ. وتمادى الليل طولاً في إحساس المسؤولين الذين لم يذوقوا للنوم طعمًا. وكان كلّ خيالٍ يخطر في شارعٍ، وكلّ ضجّةٍ تنبعث من أيّ مكانٍ، مثار خشيةٍ ورعبٍ من متسلّلٍ مجهولٍ. وعندما أشرق، أخيرًا، الصباح، دهش الجميع لرؤية الربيع ما زال يتألّق في الجوّ وعلى الأشجار، و"السين" ما فتئ يتدفّق في لامبالاةٍ جليلةٍ. وعكف الكثيرون على ابتكار المزاول الشمسيّة وشتّى الوسائل والعدد الكفيلة بتيسير التكيّف مع الظروف المستجدّة.

كان قد انقضى شهرٌ، منذ هوى برج إيفل، وتغيّر إيقاع الحياة، حين وصل إلى أحد مداخل باريس فارسٌ، وقد أخذ منه الإعياء كلّ مأخذٍ، فحمله بعض السابلة إلى أقرب مقهى حيث رشف جرعة كونياك فاستعاد جأشه، وقال في لهفةٍ: "لديّ رسالةٌ مستعجلةٌ إلى وزير الداخليّة". وفي الحال، أردفه شرطيٌّ على حصانه وانطلق به كالسهم.

أعاد وزير الداخليّة متمعّنًا قراءة رسالة مدير الناحية المقتضبة حيث جاء: "في ناحيتنا حدّاد ما زال يعالج الحديد ويصنع منه شتّى الأدوات المفيدة التي لا تتفتّت. لقد تيقنّا شخصيًّا واقع الأمر، ونرى أنّه يستأهل تقصّيًا علميًّا دقيقًا".

كان النبأ على جانب كبيرٍ من الغرابة، ولا سيّما أنّ جميع التقارير الواردة من سائر جهات الجمهوريّة كانت تؤكّد فشل كلّ الجهود المبذولة في سبيل ابتكار مزيجٍ من المعادن يقوى على الصمود في وجه عوامل التفتّت المجهولة. وأُحيط رئيس الجمهوريّة علمًا بفحوى الرسالة الغريبة، فأمر بتأليف لجنةٍ عليا من العلماء تُوفّر لها كلّ الوسائل والامتيازات الكفيلة باستجلاء غوامض ذلك الوضع المتفرّد، واستنتاج ما قد يمكّن من تعميمه، كما أمر بتأمين وسائط اتّصالٍ من شأنها إطلاعه على النتائج في غير تلكّؤٍ.

كان لا بدّ من تبديل الخيول، ثلاثين مرّةً، قبل الوصول إلى قرية الحدّاد الذي لم يُصبْ بمرض الحديد. ونال النَّصَب من أئمّة العلم الذين لم يألفوا السفر الطويل الشاقّ على صهوات الخيل. وكان مدير الناحية ينتظرهم عند مدخل القرية التي تحوّل اسمها إلى "أرض العجائب". وما إن حطّوا الرحال حتّى دعاهم إلى الإنصات في انتباهٍ: من خلال بيوت القرية، ذات السطوح القرميديّة، كان يتنامى إلى أسماعهم إيقاع المطرقة على السندان، في مثل موسيقى تسرّبت من عالمٍ آخر، وقد امتزجت رنّات الحديد بشدو الحدّاد الجذل، مردّدًا: "السُمَّن، والترغلّ، والحجل الجميل...".

ورمق العلماء بعضهم بعضًا في ذهولٍ. ولاحظ مدير قسم فيزياء الموادّ الجامدة قائلاً: "منذ زمنٍ طويلٍ لم أسمع شدوًا كهذا".

وأشار مدير الناحية على العلماء الأجلاّء أَن يَـدَعوا مطاياهم خارج القرية ويدخلوها في صمتٍ وكتمانٍ، مشيًا على الأقدام. وكان الليل قد أخذ يهبط، عندما توقّف الموكب المهيب عند منعطف أحد الأزقّة: كانت نار الكور متوهّجةً عند مدخل المحتَرَف والرجل يشدو وهو يطرق الحديد: "كم الحياة طيّبةٌ، طيّبةٌ، طيّبة!". وباغته مدير الناحية بالدخول برفقة قائد الشرطة، فخرس مذهولاً، وخبت النار في الكور، وقال متلعثمًا: "طبعًا، يمكنكم الدخول. إنّه مشغل حدادةٍ لا يختلف عن أيّ مشغلٍ سواه. يقال إنّ الأمور قد ساءت في كلّ مكانٍ. لست أدرك لذلك سببًا".

وقال مدير الناحية جازمًا: "إذن أنت لا تمانع في أن يزورك هؤلاء السادة كي يقوموا ببعض الأبحاث، وربّمَا اضطروا لاحقًا إلى اصطحابك إلى العاصمة". فاعترى الحدّادَ الشحوبُ. وحُـدِّد موعد اللقاء، في الساعة السادسة من صباح الغد.

في غضون ذلك، كان العلماء قد تجوّلوا بين زوايا المحتَـرَف حيث انتثرت السكك والفؤوس والمناجل وانتصب السندان الرائع. كانوا يجسّون ذلك الحديد الصلب في دُوارٍ من الدهشة، ظلّت أحلامها تراود نومهم حتّى الصباح.

كان الحدّاد قد شبّ نار الكور، وأخذ يضرمها بالمنفاخ الكبير، ليتطاير الشرر مع اللهب، عندما وافاه رجال العلم. وعلى سؤال قائد

الشرطة الذي استفسره عن حاله ردّ قائلاً: "لقد انتابني في هذا الليل أرقٌ، فأنا لم آلف زيارة شخصيّاتٍ رفيعة الشأن". وعندما آل إلى البياض لونُ قطعة الحديد التي كان قد دسّها في النار، مال عليها ليستلّها بملقطه الطويل، فغمر الكور وجهه المغضّن بألف ضياءٍ. وبادر إلى إلقاء الحديد على ظهر السندان، وانحنى عليه بضربةٍ مليئةٍ بالعزم من مطرقته الثقيلة. ولكن سرعان ما جمّدت الدهشة ذراعه: فقد خلا صدى السندان من كلّ رنّةٍ، بل صدر عنه صوتٌ باهتٌ منكرٌ. وأعاد الكرَّة، بعد تردّدٍ، فأبى السندان الغناء مرّةً أُخرى، وأخذ لونُ الحديد يتحوّل من البياض إلى الحمرة ويخبو بريقه، وعندما هوت المطرقة، للمرّة الثالثة، كان الحديد قد فقد كلّ صلابته وغدا هشًّا مائعًا. وتصبّب وجه الحدّاد عرقًا من الصدمة والخجل، تحت عشرات العيون التي حطّت عليه أبصارها الفضوليّة. وأخذ قطعة الحديد بملقطه ليقذفها من جديدٍ في نار الموقد، إلا أنّ بعضًا منها كان قد علق بالسندان وكأنّه مادّةٌ لزجةٌ.

وفي حين كانت النار تشبّ من جديدٍ، ولون الحديد يميل إلى البياض، عكف الحدّاد على تحرير السندان ممّا علق به، كما لم يفعل قطّ من قبل. ومرّةً أُخرى وضع الحديد المبيضّ على السندان وهوى به بضربةٍ حازمةٍ من مطرقته. ولكنّ السندان ظلّ يأبى الغناء، وسُحِق الحديد سحقًا وقد فقد كلّ تماسكه. لا بل بدا للحدّاد أنّ السندان نفسه قد أمسى طريًّا مشروخًا. فقذف بملقطه ومطرقته أرضًا، ودفن رأسه بين راحتيه وراح، كطفلٍ، ينتحب، وقد فغر الجميع أفواههم دهشةً وخيبة أملٍ.

طفق أعضاء لجنة البحث والرسميّون يتسلّلون نحو الباب، استعدادًا للقفول، بعد أن أعرب رئيس اللجنة عن بالغ امتعاضه، فهو وزملاؤه كانوا ضحيّة خدعةٍ حقيرةٍ، وتجشّموا، جزافًا، مشقّة رحلةٍ مضنيةٍ!

وما لبث أن تقاطر أهل القرية إلى دكّان حدّادهم، وكأنّهم في مأتمٍ، ومعظمهم كانوا يعبّرون عن الأسى والاستنكار، من جرّاء إتاحة الفرصة لأبناء المدينة كي ينقلوا عدوى مرض الحديد إلى قريتهم التي كانت ما تزال في مأمنٍ منه.

ولمّا انفرد الحدّاد بنفسه، بُعَيْد الظهر، خطر له استئناف المحاولة. وهوى مرّةً أُخرى بمطرقته، وقد قطَّب جبينَه القلقُ، وتدفّق منه عرق الاضطراب، إلا أنّ السندان أقام على صمته وانفلش الحديد كالعجين.

وفي المساء لم يقوَ على ازدراد ما أعدّته له زوجته من عشاءٍ، وعبثًا حاولت استجراره إلى الكلام، وسرعان ما أوى إلى فراشه وعيناه تحملقان في الفراغ، وأسنانه تصطكّ، حنقًا وضيقًا. غير أنّ الزوجة ظلّت مقيمةً على تفاؤلٍ مطمئنٍّ: محيّاها مشرقٌ بابتسامةٍ كالربيع، وشفتاها تقطران عذوبةً ورقّةً، وهي لا تني تردّد: "لا عليك، يا حبيبي، فطالما نحن كلانا معًا، والإيمان يعمر قلبينا، فستبقى الحياة حلوةً، وسيشرق، في الغد، فجرٌ قشيبٌ وستسطع شمسٌ جديدةٌ".

عندما صاح ديكٌ، فجاوبه آخر من طرف القرية، صحا الحدّاد من نومٍ ثقيل الوطء، فرأى يد زوجته تداعبُ جبينه، وبسمتها تشرق

عليه كالشمس، فابتدرها بالقول: "قولي إنّ ما حدث أمس غير صحيحٍ، وإنّه مجرّد حلمٍ". وردّت في عذوبة: "أجل، يا حبيبي، كان كابوسًا ومضى. والآن سترى، فسنذهب معًا إلى مشغلك، وسيكون كلّ شيءٍ رائعًا".

نفحة حياةٍ وفرحٍ، كانت تلك الزوجة، وما انفكّت طلاوة حيويّتها تدهشه كلّ يوم.

كانت قد أعدّت له إفطارًا شهيًّا أسبغت عليه من مرحها مزيدًا من شهيّةٍ بكهةٍ. وكان النهار نديًّا على عتبة الباب عندما فتحته قائلةً: "سأرتّب البيت وألحق بك، في غضون دقائق".

كلبٌ وحيدٌ كان يمرّ في الطريق، وهو ما زال يغالب النعاس. وكانت أولى أشعّة الشمس تداعب باب الدكّان الذي فتحه الحدّاد وهو يغنّي: "بالقرب من شقرائي..."، فيما كان وقع قبقاب زوجته يتردّد فوق حجار الطريق. وبادرت فور وصولها إلى قرع السندان بإحدى المطارق فتعالت رنّةٌ صافيةٌ، بعيدة الصدى، وكأنّها رنّة ناقوسٍ أصدت لها ضحكتان منهما لا تقلاّن صفاءً ورنينًا. وراح المنفاخ يلهث، واللهب يتراكض في الموقد، وسرعان ما ابيضَّت قطعة الحديد، وأمسك بها الحدّاد وهو يغنّي، فوضعها على السندان وطرقها، وغنّى السندان بأجمل نغمةٍ، وانهمرت الطّرْقات متتاليةً، وسط مهرجانٍ من الشرر المتطاير، والحديدُ صلبٌ وطيّعٌ في آنٍ واحدٍ، والزوجان يتبادلان نظرات النصر والغبطة.

ولحق رسولٌ من المخابرات العامّة على عجلٍ بلجنة العلماء، بيد

أنّ إفادته قوبلت بالكثير من الريبة. غير أنّ تحرّياتٍ أُجريت عن بُعدٍ حيث كانت تُسمع رنّات المطرقة على السندان متلاحقةً منتصرةً وسُمعتْ شهادات العديدين من شهود العيان، إذ لم يتجاسر أحدٌ من الباحثين على ولوج مشغل الحدّاد من جديدٍ. واحدٌ منهم فقط تسلّل ليلاً، ولكنّ محاولته باءت بالفشل، إذ ماع الحديد بين يديه.

وتمادت الأبحاث شهرًا، ولم يُهمل أيّ اعتبارٍ، بل رِيزَت جميع العوامل الممكنة وأُشبعت بحثًا، وقد تناولت بالتمحيص نوع المعدن، وحرارة الجوّ والمناخ والارتفاع وتركيب التربة ودرجة الرطوبة وزاوية النور وكلّ ما قد يخطر ببال عالمٍ باحثٍ. ولكن، في أعقاب ذلك الشهر من الحسابات المضنية والدراسات المستفيضة، انتهت اللجنة إلى أنّ مشغل الحدّاد لا يتميّز بأيّ عنصرٍ خاصٍّ كفيلٍ بإجلاء غوامض سلامة الحديد الذي ينفرد به هو دون سواه.

غير أنّ الحرص على الإلمام بكل العوامل والمتغيّرات قد أسفر عن عنصرٍ واحدٍ يمتاز به حدّاد تلك القرية: فقد كان يشدو وهو يعمل، ويعبّ من حبّ زوجته فيضًا لا ينضب من الفرح والأمل.

٦

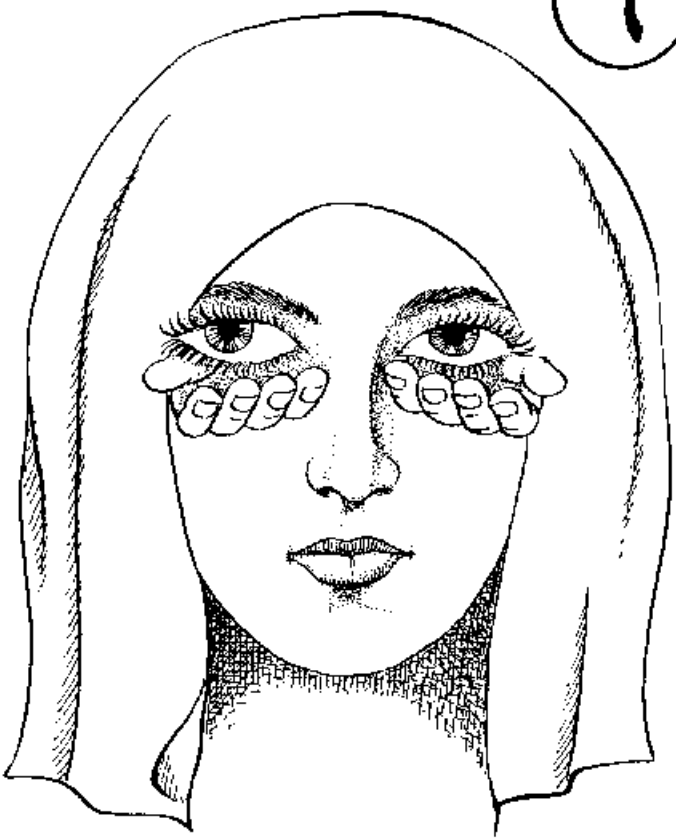

سر الساحرة

سرّ الساحرة

من قال إنّ الساحرات جميعهنّ عجائز دميماتٌ؟

ذات مرّةٍ، كانت هناك ساحرةٌ شابّةٌ ذات شعرٍ فاحمٍ مسترسلٍ، وعينين خضراوين تحاكيان ينابيع مجهولةً تشدو في أعماق الغابات، وابتسامةٍ، عندما تبدأ تُشعّ على محيّاها، تنطلق من عينها اليمنى، فتحوّل شكل محيّاها بأجمعه. لقد كانت "بيرتا" جميلةً، وكان لجمالها طابعٌ فريدٌ: عمقٌ بعيد الغور، منقطع النظير، يسبغ عليها امتيازًا خاصًّا، وكأنّ جميع الصخور والغابات والينابيع المحدقة بالقرية قد تجمّعت في مطاوي نفسها، فبدت زهرةً سرّيّةً أنبتها عالمٌ مسحورٌ.

وكانت "بيرتا" تعيش وحيدةً، إذ ما تجرّأ، قطّ، رجلٌ على أكثر من رشقها بنظرةٍ مختلسةٍ. فقد كان يقال عنها إنّها ساحرةٌ، ورغم قوامها الممشوق، وبسمتها الساحرة، كان الجميع يخشون القدرات السرّيّة الكامنة داخلها، مع أنّها، في الواقع، لم تكن ساحرةً، بل كانت كاهنة الطقوس الغابرة.

عندما غرق أبواها، في إحدى أمسيات آذار، أثناء محاولتهما التقاط الأخشاب الطافية على سطح النهر الفائض، تبنّتها ساحرة القرية العجوز "حنّة" وقالت لها، وهي تقبّلها: "تعالي، يا صغيرتي، لقد

سبقت وأخذتك بين ذِرَاعِي، وأنتِ طفلةٌ، وسأجهد في أن أكون لـــك، بعد الآن، أمًّا". وكان عمرها عشر سنواتٍ.

إنّ العجائز الجميلات نادراتٌ. ووجه "حَنّة" كان يحـــاكي قـــشرة جوزةٍ، بعد إن حفرت فيه سنواتٌ طويلةٌ مـــن الابتـــسام، والطيبـــة، والآلام، والسكون، مئات الغضون. ومع ذلك كان يَنِمّ، أَحيانًـــا: عـــن حيويّةٍ داخليّةٍ تضجّ بالشباب. وكانت "بيرتا" تجد متعةً في تأمّل وجـــه "حَنّة"، ولا سيّما في المساء، علي ضوء لهيب الموقد. وغالبًا ما كانت تسهم، حائرةً، متسائلةً هل كانت النار تشعّ من الحطب المحتـــرق، أم من الوجه النحاسيّ المتغضّن، إلى أَن توقظها العجوز من شـــرودها حين تلتفت إِليها قائلةً: "بمَ أَنت تتأمّلين، يا صغيرتي؟"...

في بعض الليالي، عند هبوط الظلام، كان الباب يُقرع قرعًا رقيقًا. وتفتحه "حَنّة" فتدخل إحدى نساء القرية، وعلى ذراعيها طفلٌ، وينعقـــد حوارٌ خافتٌ، تنهيه "حنّة" في حزمٍ: "لا، لست أقوى على ذلك، في هـــذه الليلة. كنت أودّ أَن أسديك هذه الخدمة، غير أنّ الليلـــة غيـــر مؤاتيـــة. ولكنّني أَعدك بذلك في أوّل ليلةٍ تكون فيها الظروف مؤاتيـــةً. بوســـعك الاعتماد عليّ". وتعود "حنّة" للجلوس إزاء أشعّة الموقد المتوهّجة، ويخيّم الصمت، وتلمح بيرتا ظلّ العجوز يمتزج باللهيب، في أعماق الموقـــد. كانت قد سمعت، في طفولتها، الناس يسمّون "حنّـــة" ســـاحرةً، وكـــان يخامرها شيءٌ من الخوف، وهي ترقبها، ساهمةً، أمام الموقد، وكأنّها في رحلةٍ نائيةٍ.

وكانت ليالٍ تنطلق فيها "حنّة" عند الغسق بعد أن تكون قد ملأت

الموقد بالحطب وشبّت فيه النار، وأعدّت العشاء، وقبّلت الفتاة قائلةً: "لقد أعددتُ لك كلّ شيءٍ، فلا تنتظريني كي تأوي إلى فراشك". ثمّ تتلفّع بشالها الصوفيّ الأسود، وتشرع الباب على الظلام والريح. وقد لحظت "بيرتا" أنّ العجوز لا تغيب، إلاّ حين تعصف بالليل رياحٌ هوجاء، ولدى استيقاظها في الصباح، كانت تجد على المنضدة بعض أغصان الشجر. وتقبل إليها "حنّة" وقد أشرق وجهها بشبابٍ متجدّدٍ، فتسألها: "أراضيةٌ أنتِ عن الله؟"، وتجيب الفتاة: "أجل، أنا راضيةٌ".

وذات ليلةٍ، قُرع الباب في عنف، فانتفضت "حنّة"، وعندما فتحته، ارتدّت خطوةً إلى الوراء، أمام شَبحٍ أسود، وسرعان ما استعادت جأشها قائلةً: "تفضّل بالدخول، يا حضرة الكاهن". والتقطت "بيرتا" بعض أطراف حوارٍ سريعٍ متقطّعٍ، كلمات غريبة: "لا يحقّ لك ذلك، سيعاقبك الله... سيقودك إبليس إلى الهلاك... عيب... اللعنة... جهنّم..."، فيما كانت العجوز تردّد: "لا، يا حضرة الكاهن... لا، يا حضرة الكاهن..."، وكلّما همّت بالدفاع عن نفسها ازداد رجل الدين حدّةً؛ ثمّ ما لبث أن انصرف... وكانت جميع فرائص "حنّة" ترتعد، فأوصدت الباب، وتهافتت على كرسيٍّ واطئٍ، وانفجرت عبراتها ممتزجةً بزغردة النار في الموقد، ومن خلال دموعها كانت تقول للفتاة: "لا عليكِ، يا صغيرتي، لا تهتمّي للأمر، ليس الكاهن بسيّئٍ، ولكنّه لا يدرك، سأشرح لك في ما بعد". وكانت "بيرتا" قد تشبّثت بمعصم العجوز، وراحت تشاركها البكاء.

في أوائل الليلة التالية، قرعت البابَ امرأةٌ، وتردّدت "حنّة"، إلاّ

أنّها، بعد بضعة أيّامٍ، وفي ليلةٍ هاجت رياحها، انطلقت عقب العشاء، بعد أن طمأنت الصغيرة: "لا تخافي يا بيرتا فسأُحكم إغلاق البـــاب". وكم كان بودّ بيرتا أَن تصحب العجوز، ولكنّها لم تجسر على طلـــب ذلك، وظلّت تحملق بالباب، وهي تسمع صرير المفتاح فيـــه. وفـــي الغداة كانت الأغصان على المنضدة، وعينا العجوز تتألّقان وتشيعان في وجهها نورًا.

ولم يلبث أَن انتقل الكاهن إلى قريةٍ أُخرى، وكان لا بدّ من بعض انتظارٍ، قبل قدوم كاهنٍ آخر شابٍّ.

ومرّت السنون، وغالبًا ما توسّلت "بيرتا" كي تصطحبها "حنّـــة" في الليالي التي تهيج رياحها، لتأتي معها بالأَغـــصان، إلاّ أنّهـــا مـــا تجاسرت، قطّ، على المضيّ أَبعد من ذلك في سؤالها، إذ كانت تؤنس في داخلها أَنّ رحلات العجوز، في الليالي التي تجنّ رياحها، تنطوي على سرٍّ يندّ عن الكلام. وكانت حنّة تؤجّل إلى مستقبلٍ غير محـــدّدٍ موعد تلبيتها طلب الفتاة، وتردّد دائمًا: "أَنت ما زلت فتيّةً، ولا بدّ لي من التفكير في الأمر".

غير أَنّ الرياح كانت قد أخذت تستحوذ على نفس برتا بحيث كانت تستبق هبوبها، وتتنبَّأ بقدومها، حتّى في الأيّام الساكنة الساجية، بعـــد أن تطوف فوق الصخور والهضاب المحيقة بالقرية، فتُنعِم، إذ ذاك، حنّـــة فيها النظر، وكأنّها تجيل في خاطرها تساؤلاً، حولها، لا ينقطع.

ولم يبارح بيرتا حلمها باقتفاء أثر العجوز، خلسةً، في ليلةٍ مـــا، إلى أن وطّنت العزم على تحقيقه، ذات ليلةٍ، كان هياج الـــريح فيهـــا

عنيفاً، حيث اصطكت منها النوافذ، وزمجرت مدخنة الموقد، وراح السقف الخشبيّ يئنّ. لم تكن تلك الرياح لتدعو إلى السبات، بل كانت رياح تدمير، ورياح ولادة، في آنٍ واحدٍ، رياح أوراقٍ ميتةٍ ونسغٍ متجدّدٍ متدفّقٍ. وفي حين كانت عيناها تحملقان في الظلام، قررت بيرتا تأثّر خطى العجوز. إنّ هناك ومضاتٍ تسطع في الليل، فتخطّ طريق حياةٍ.

لقد تلفّعت هي أيضًا بشالٍ صوفيٍّ، وشدّته بعنفٍ إلى صدرها، إذ كانت الريح تحاول انتزاعه منها. ومن حسن طالعها أنّ خطى العجوز كانت قد غدت وئيدةً، وسمعها ثقيلاً، إذ كان لا بدّ من اللحاق بها عن كثبٍ لئلاّ تفقد أثرها، في ثنايا الليل البهيم.

كانت العجوز تسير، بحيطةٍ، في دربٍ مرصوفٍ بحجارٍ كبيرةٍ: وتوقّفت عند باب منزلٍ، ثمّ ما عتّمت أن خرجت منه، واستطاعت بيرتا أن تلمح، بفضل النور المتسرّب من المنزل، قبل إغلاق الباب، ما يشبه كتلةً مبهمةً على ذراعي العجوز.

في نهاية الدرب، كان الجسر الحجريّ يمتطي الساقية التي ارتفعت مياهها، وعلا هديرها، وكأنّه مناجاة الصخور للظلام. ونمت. فجأةً، إلى سمع بيرتا صرخةٌ، تلاها بكاءٌ، حاولت العجوز إسكاته بحداءٍ حانٍ. يا إلهي! لقد كانت العجوز تقلّ، بين ذراعيها، طفلاً. وضجّ صدر بيرتا بخفقاتٍ مجنونةٍ، واضطرمت في حناياه النار.

كانت الرياح تتدفّق، في مثل حُزَمٍ كثيفةٍ، خلال الصخور وأشجار السنديان، مطلقةً صفيرًا مجنونًا، وتحاول أحيانًا انتزاع شال "بيرتا"

التي كانت حريصةً على السير، في حذرٍ، فوق الأوراق اليابسة. خشية أن تثير خطواتها وقعًا صارخًا. وتسلّلت العجوز في منحنى صخريٍّ، فلم تعد الفتاة تسمع لها صوتًا، ولكنّها ما لبثت أن لمحت نورًا خافتًا، فقد كانت العجوز قد لجأت إلى مغارةٍ واطئةٍ حيث أشعلت مصباحًا؛ ورأتها بيرتا على ضوئه تتقدّم صوب صدر المغارة، فيما نور المصباح يتراقص، وظلّت العجوز ترسم على الصخور أشكالاً مدهشةً. وتراكضت إلى ذهن الفتاة لفظة "الساحرة"!

ودنت العجوز من صخرةٍ كان ينساب من جوفها خيط ماءٍ رقيقٍ، ولكنّها تعثّرت فجأةً، وهوت أرضًا، وعلى ذراعيها الطفل الذي ظلّ، مع ذلك، نائمًا. وفي طرفة عينٍ، كانت بيرتا إلى جانبها، قلقةً، متلهّفةً. وقالت العجوز، في رقّة: "آه! يا بنيّتي. أراك هنا؟". ثمّ أردفت، وهي تنهض: "ها قد جئتِ، أخيرًا، وها أنت تشاهدين أنّني أصبحتُ عاجزةً، ولن أقوى على مواصلة مُهِمَّتِي طويلاً. كنت أظنّ أنَّني سأدفن سرّي معي، ولكن اسمعي، يا بيرتا".

كانت الريح تدندن عند مدخل المغارة، وتطلق بين الحين والحين صفيرًا، وكأنّها كانت تجهد في دوزنة نغمٍ. وتابعت العجوز: "أترين؟ في مثل هذه الليالي، حيث المغارة تغنّي".

كان صوت الريح يرقّ، ثمّ تنطلق نغمةٌ مرتفعةٌ تحاول الاستقرار، بحيث تبدو المغارة وكأنّها نايٌ تحت شفاه الريح. وقالت العجوز: "ها قد أذن الأوان! وأزاحت الغطاء عن وجه الطفل، وجلست على صخرةٍ بالقرب من نبعة الماء، ورشّت بضع قطراتٍ

على آذان الرضيع قائلةً بتؤدةٍ: "يا صغيري، لن تنسى أَبدًا شدو الناي هذا، وستعرف الإنصات إلى موسيقى الحياة السرّيّة، وستظلّ هذه الليلة ماثلةً في أعماق قلبك".

كانت أنغام النشيد تعلو وتهبط، وسحرها يغمر المغارة. والفتيل المغموس في زيت المصباح يتّقد ببطءٍ، ويرتجف أَحيانًا، فتعدو على سطح الصخور ظلالٌ غريبةٌ.

ولمست العجوز عيني الطفل بأصابعها المبتلّة، وهي ما تزال تخاطبه: "وستعرف التملّي من رؤية النجوم، ولن يغرب عن بالك أنّ في الظلال نورًا، وفي النور ظلالاً، وستبحث عيناك دائمًا وراء المنظور، دائمًا".

وسألتها بيرتا: "هل لي بأخذ الرضيع بين يدي؟".

– أتودّين ذلك حقًا؟ إذن، فستواصلين أنت...".

وحضنت بيرتا الطفل الذي كان مغمضًا جفنيه، يتنفّس السحر، ويصغي، في طربٍ، إلى ناي المغارة.

– "بلّلي شفتيه ببضع قطرات ماءٍ، والآن ضعي فمك على فمه".

كان فم الطفل يحاكي ثمرةً حمراء، ووضعت بيرتا شفاهها عليه، فيما معزوفة الريح تعلو نغماتها، والعجوز تتابع:

– "لن تنسى، بل لن تنسيا كلاكما: لقد قبّلكما الله على فميكما. صوبه ينطلق كلّ كلامٍ، ونحوه يمضي كلّ حبٍّ. لن تنسيا أَنّكما هوى الله. بنفخ الريح الذي يهزّ اللهب وماء موسيقى السماء، فابقيا إلى الأبد صنيعة صدر الله".

وبدت نغمات الناي متردّدةً، حيرى، ثمّ تعالت، فخفتت، والعجوز تحدّق في بيرتا والطفل على ذراعيها، ثمّ أسرّت: "كان اسمها أناييس تلك التي علّمتني، لخمسين سنةً خلت. لا بدّ من اجتماع الماء والنار والريح. ولذلك يتعذّر تلبية الناس في كلّ حينٍ. قد يفلح هذا في تهدئة الأطفال الذين يعانون رجفةً أو اضطرابًا عصبيًّا. ولكنّ أَهمّ ما في الأمر أنّهم، في ما بعد، لن يبقوا كما كانوا. فقد عرفوا الله، أحسّوا به، دخلوا في حوزته، وسيظلّ ذلك حيًّا في أعماقهم. وأَنتِ أيضًا، يا صغيرتي المسكينة، سيلتهمك ذلك... ستكونين لله وللناس أَجمعين. لن تستطيعي، بعدُ، أن تهبي ذاتك لرجلٍ، ولكنّ جميع الأولاد سيكونون أولادك".

وفي طريق إِيابهما، أعادتا الطفل إلى أمّه، وأهدتاها غصنًا، وسألت المرأة متعجّبةً: "إذن، فها إنّ بيرتا تشاركك الآن!".

كانت الريح قد أَخذت تسكن، وفي المنزل، كان الرماد، في الموقد، يلتمع بومضٍ أَحمر.

وفي الغداة، لم تسمع بيرتا نداء العجوز. وسرعان ما دفع النبأ جميع نساء القرية إلى الشارع مردّداتٍ: "لقد ماتت حنّة". وكنّ جميعهنّ على علمٍ بأنّ بيرتا قد ظفرت "بالموهبة". لا ريب أنّها، وهي بعد في الثامنة عشرة، أَصغر من أن تصبح ساحرةً، ولكنّها كانت تملك "المعرفة".

كان قد انقضى شهرٌ منذ رحيل العجوز عندما قُرع الباب من جديدٍ في إحدى العشيّات. ولكنّ بيرتا، هي أيضًا، لم تكن تقوى على

تلبية كلّ طلبٍ في كلّ حينٍ، بل كانت تسوّف على غرار حنّة. غير أنّها، في الليالي التي تستيقظ فيها رياح المغارة، كانت تهبّ في أعماقها أمواج الحميّة، وتحملها إلى ذرى الدهشة، بحيث لا تعود تحسّ بمرور الليل، وهي تملّي أنظارها من الطفل الثاوي على ذراعيها، في حين يفعم صدرها نشيد الريح والأرض واللهب والماء.

وقدم إلى القرية كاهنٌ شابٌّ لم يكن ليتردّد في تجاذب أطراف الحديث مع بيرتا كلّما صادفها. أمّا هي فلم تكن قد غربت عن بالها زيارة سلفه لمضيفتها، في تلك الليلة المشؤومة، ومن ثمّ فقد التزمت الحيطة والحذر، إلاّ أنّها، شيئًا فشيئًا، اقتنعت بأنّ هذا الرجل، أيضًا، كان يعاني هوى الله. لم يكن يستفيض في وعظٍ، ولكنّه كان يكلّم كلّ إنسانٍ عن حياته الخاصّة، فما يلبث أن يراها على وجهٍ قشيبٍ. وكان كلامه يسكب شعورًا من الحبّ والاطمئنان في الصدور.

وقد أَقام في القرية طويلاً، واستحوذ على قلوب الأطفال. وغالبًا ما كان يختلف إلى منزل بيرتا فيتكلّمان عن الأولاد والأطفال، في اندفاعٍ واحدٍ، وكأنّ أولاد القرية أولادهما. وسألها يومًا: " أحقًّا يأتيك أَهل القرية بالأطفال؟".

وحدجت "بيرتا" وجه محدّثها، الفائض طيبةً وصراحة، وابتسمت، فاستدرك قائلاً: "ما كان عليّ طرح مثل هذا السؤال الفضوليّ. فأستميحك عذرًا. ولكنّني لم أَقصد أيّ سوءٍ، ولا أضمر أيّة ريبةٍ". وردّت "بيرتا": "وأَنا أَيضاً أثق بك، يا حضرة الكاهن. ولكنّها أمورٌ يصعب التعبير عنها، ويعجز دونها الكلام".

وذات صباحٍ، وقد تلكّأت في المغارة، رآها الكـــاهن عائـــدةً، آن طلوع الشمس، حاملةً طفلاً غطّت وجهه بشالها، فحيّاهـــا بابتـــسامةٍ صامتةٍ.

وكانت تطوّراتٌ جليّةٌ متلاحقةٌ تغيّر وجه القرية التي أخذ شبّانها يهجرونها. وراحت بيرتا تتساءل: أنّى لهم سماع موسيقى المغـــارة، وسط صخب المدن الكبيرة، أو رؤية النار المتّقدة في حنايا كلّ حياةٍ؟ وهل ستظلّ تشدّهم منابع الحبّ الخفيّة؟

أَضحى الرجال يعملون بعيدًا عن منازلهم، وبات لـــديهم آلات، وأجهزة راديو، وأَخذت الضيعة تتخلخل وتفقد روحها، وبدا ســـكّانها مشتّتي النفوس، ينهشهم، بلا هوادةٍ، نهم المال. حتّى عدد الأطفال أَخذ في التضاؤل، وندر من بات يقرع باب "بيرتا"، ليلاً. وصار الصبيان يلحقون بها صارخين: "الساحرة! الساحرة!".

كانت تدلف نحو الأربعين حين شرعت تَنْحُل وتذبل. وفي غـــضون أَشهرٍ معدوداتٍ، أَضحت مثل عصفورٍ هزيلٍ في نهاية الـــشتاء. وكـــان الكاهن يعودها بين الفينة والفينة. وذات يومٍ، جاءها بغصن شجرٍ، فـــرأى الدموع تزدحم في مآقيها، وفي لا شعورٍ قالت: "آه! لو كنـــت تعلـــم، يـــا حضرة الكاهن..."، غير أنّها أحجمت، فجأةً، عن البوح بـــسرّها. وفـــي مساءٍ آخر، قال الكاهن، بصوتٍ خافتٍ: "ربّما كان اســـتطلاعي بـــداعي الفضول، ولكنّني معنيٌّ بكلّ السبل التي تفضي إلى الله... وربّمـــا لأنّنـــي أستشفّ في داخلك سرًّا جديرًا بالتقصّي... لذلك أودّ أن أعرف أجمل مـــا في حياتك".

وردّت بيرتا: "يومًا ما، لا بدّ أن أطلعك عليه".

وكان يخامر الكاهن شعورٌ بأنّها قد أشفت على الموت.

بعد بضعة أيّامٍ، طرق الطبيبُ باب الكاهن وقال: "إنّ حال "زميلتك" يتفاقم سوءًا، وقد طلبت منّي إخطارك برغبتها في رؤيتك".

وخفّ الكاهن إليها فألفاها بالغة النحول والشحوب، وقالت بصوتٍ متهدّجٍ مقنّعٍ:

– "شكرًا لمجيئك... يبدو أنّ الرياح ستهبّ هذه الليلة، وإنّني أستميح لنفسي أن أطلب منك أمرًا متعذرًّا. أودّ أن تسهر معي، وحدك".

– "بالطبع، سأحضر".

ذلك المساء، كثيراتٌ من نساء القرية عدنَ بيرتا، وبعضهنّ اصطحبن أولادهنّ. وكانت بيرتا ترمق الأولاد بابتهاجٍ متمتمةً: "ستهبّ الريح هذه الليلة، شكرًا لقدومكم".

وعند الساعة الثامنة، أنّ السلّم الخشبيّ تحت أقدام الكاهن، الذي نزل عند رغبة المحتضرة وطلب إلى النسوة الزائرات العودة إلى بيوتهنّ، على إن يدعوهنّ للعودة، لاحقًا. وكانت الريح تهزّ النوافذ بعنف، وتصدم زوايا السطح. وبدا وجه بيرتا ناعمًا كالتمثال، فيما سطعت عيناها بألقٍ فائقٍ، وأشارت إلى الكاهن إن يدنوَ منها، وقالت: "حضرة الكاهن، أودّ أن أمضي، للمرّة الأخيرة، إلى المغارة، حيث كنت أحمل الأطفال. ولستُ أستطيع أن أطلب ذلك من أحدٍ سواك. فما من أحدٍ يقوى على فهمي. ولكنّني واثقةٌ أنّك، أنت، قادرٌ على اكتناه الأسرار. هناك سأبوح لك، وسأريك، فهل لك أن تلبّي طلبي؟".

وأجاب الكاهن: "سأفعل، يا ابنتي المسكينة".

ثمّ لفّها بغطاء صوفيٍّ، وأقلّها بين ذراعيه، وكأنّها، من جرّاء هزالها، طفلٌ رقيقٌ. كان الطريق مقفرًا، ولا يملأ السكون سوى هدير المياه عند الجسر وصفير الريح.

وكانت "بيرتا" تتمتم: "الآن، إلى اليسار... حسنٌ... والآن انعطف نحو اليمين، قُبَيْل الجسر الخشبيّ الصغير... هنا، ها هي ذي المغارة، يجب أن تطأطئ رأسك".

وأشعل الكاهن فتيل المصباح، وتقدّم نحو النبع في الجدار الصخريّ. وجلس على صخرةٍ حيث أشارت بيرتا.

وكانت الريح تحاول اقتحام المغارة، فتبعث في بابها نغماتٍ متقطّعةً، وبيرتا تردّد، ولهاثها يلامس وجه الكاهن: "عمّا قريب، عمّا قريب... ها هو الآن". وكانت الموسيقى قد استحوذت على المغارة.

وهتف الكاهن، وهو يحدّق في وجه بيرتا:

– "كم هذا جميلٌ! أهنا كنتِ تأتين؟".

– "أجل! وكان لا بدّ من تلاقي العناصر جميعها: الريح واللهب والماء".

وروت له كلّ شيءٍ، ولكنّ صوتها كان قد بات خافتًا، بحيث اضطرّ إلى متابعة حركات شفتيها، بإمعانٍ، كي يدرك ما تقول. وقد ردّدت، في تؤدةٍ، جميع كلمات التعويذة التي تعلّمتها من العجوز. ثمّ تفرّست في وجهه قائلةً: "حضرة الكاهن، هل تتفضّل فتقوم، من

أَجلي، بهذه الطقوس، علّ عينيّ تنفتحان، واسعتين، عمّا قريب. وغمس الكاهن إِصبعه في ماء النبع، وبلّل به أذني بيرتا وجفنيها، وشفتيها اللتين تحوّلتا بيضاوين، إذ كانت تحتضر، وأردف وهو شاخصٌ إلى وجهها الذي ما زال يعبّر عن نورٍ داخليٍّ:

– "لن أَنسى أَبدًا سرّك، يا بيرتا".

وفي حين كانت تجتاحها قشعريرةٌ، أردفت، وقد أَضحى صوتها همسةً رقيقةً:

– "السرّ، يا حضرة الكاهن، هو أنّ الله يتألّم أكثر من البشر ولكنّنا قليلون نحن الذين يدركون ذلك".

كانت الريح تغشى باب المغارة في موجاتٍ متقطّعةٍ. ورنت بيرتا إلى عيني الكاهن، في عذوبةٍ بالغةٍ، ثمّ مال وجهها على ذراعه، في مثل مداعبةٍ حانيةٍ.

وساد المغارة صمتٌ كثيفٌ، بعد أَن فارقت بيرتا الحياة، في حين كان الكاهن يتمتم: "قليلون نحن الذين يدركون أَنّ الله يتألّم".

٧

القطار السريع

القطار السريع

تسلّق فرانسوا الدرجات الحديديّة الثلاث المؤدّية إلى مركز قيادة القاطرة، وألقى عن كاهله قمطره ومعطفه الجلديّ، ورفع زجاج النافذة اليُمنى، ثمّ انتصب أمام المقابض، وعندما تحرّكت عقارب مُؤَشِّرَات المحرّكات وانبعثت الحياة في القاطرة، أخذته نشوةٌ قد طالما عهدها كلّما أيقظ قلبُ الآلة بين أنامله إحساسَه بقدراته. فقد كان يشعر برتل العربات المطواع المتأهّب للاستجابة إلى إشارات يده، في انسيابٍ ليّنٍ عبر السهول والوديان وفوق الأنهر، وفي تسلّلٍ مجنونٍ في الأنفاق، وسحابة تسعَ عشرة سنةً ما انفكّ على التحامٍ بالقطار حميمٍ، إذ شهد تعاظم سرعته وكان كلُّ تطوّرٍ فيه يوفّر له فرحًا جديدًا غامرًا. فلقد كانت شبكة السكّة الحديديّة تبدو له كائنًا حيًّا.

وكانت قطارات الليل السريعة المتمادية الطول أَثيرةً لديه. فعندما تجاهد باريس بكلّ أنوارها ضدّ زحف الليل الوليد، وتغدو المحطّة كوكبةً من الأضواء الملوّنة، والقطار قابعٌ في سكونٍ وتكتّمٍ، وكأنّه يُجيل في خاطره الرحلةَ الطويلة التي سيتعيّن عليه إتمامها نحو العديد من المصائر التي ستتبعثر في الغد، كان فرانسوا يهيم في أَحلامه، وهو يراقب تباين صنوف الركّاب الذين يصعدون إلى القطار: المرأة

العجوز المتلحفة بالحداد، والرجل الطويل ذو الحقيبة الجلديّة، والصغار الذين يقلّون في سلّةٍ هرّةً مدلّلةً، ومن حوالي سفينة الليل التي لن تخلّف عمّا قريب بعدٍ رحيلها، سوى رتابة السكّة الحديديّة، جميع أولئك الذين واكبوا مودّعين، والقبلات التي تجهد في التغلّب على الفراق، والعَبَرات، وإيماءات الأيدي والوجوه خلف زجاج النوافذ.

تلك القطارات الليليّة التي تجري ناشدةً النهار الجديد والفجر البازغ، أرضًا أُخرى وحياةً أُخرى، كم قاد منها فرانسوا في ظلّ ليالي الشتاء الرطبة، وفي رقّة الربيع العطر، وفي سكون الصيف المهيمن، وفي رعشة الخريف! لقد كان ملمًّا بكل ضروب الظلال، وبمختلف العوالم التي تشرعها أمام عينيه مصابيح القاطرة، وتنتثر عبرها صوى الإشارات الضوئيّة، الأخضر منها والبرتقالي والأحمر، والتي باتت يمينه تتحسّسها تلقائيًّا. وقد طالما حام فكره حول الحمولة البشريّة التي يقلّها خلفه: الأولاد النيام إلى جوار هرٍّ فتح على الظلام عينيه، والعجوز المسكينة القادمة من أجل دفن ابنها، والمرأة الشابّة الماضية لعيادة زوجها الذي ينهشه السرطان في المستشفى، والجنديّ الحالم بلقاء خطيبته في الغد. كان يجول خاطره بكل تلك الأجساد التي تعاني عناء الرحلة، وبكلّ تلك الوجوه التي نحتتها الهموم والأحلام. وكان يعلم منذ زمنٍ طويلٍ أنّ الوجوه تتغضّن في أثناء الليل عندما تكفّ عن مقاومة القلق الكمين.

– "إيه، فرانسوا، هل أنت تحلم؟"

كان مدير المحطّة عند أقدام السلّم، وقد دنا موعد الانطلاق

وراحت المذيعة تعدّد، مثل حبّات السبحة، أسماء المحطّات التي سيتوقّف فيها القطار، ثمّ دعت إلى إغلاق أبواب العربات. وأردف مدير المحطّة:

– "أتدري أنّه قد تمّ توقيف الشبّان الذين قتلوا الفتاة الصغيرة في تولوز؟ كانوا قد انطلقوا من باريس مساء الثلاثاء لتنفيذ عمليّتهم، هذا ما تقوله صحف هذا المساء. وكنتَ أنتَ تقلّهم في قطارك. ألستَ أنت من قاد القطار السريع يومذاك؟ هيّا، وإلى اللقاء في يومٍ مقبلٍ".

كانت الإشارة الضوئيّة الحمراء ما برحت تحظر عبور الليل. بيد أنّ سقوط الدقيقة الأربعين بعد الساعة الثانية والعشرين قد أحال إشارة الضوء إلى اللون الأخضر، وكأنّها زهرةٌ أضاءت الظلام. واهتزّ القطار تحت يد فرانسوا، في حين كان يُسمَع اصطراع أبوابٍ تُغلق، فيما بعض المناديل ما زالت تلوّح. وأخذ الإيقاع الثقيل يردّد نغماته، وفرانسوا يحاول، بكلّ جسمه، الاستيلاء على القطار، وينتظر الانعطافات الأولى. وها هي ذي بعض قطارات الضاحية، وباقات الأشجار، وأخيرًا الليل المشرع بكل اتّساعه.

"لقد كنت تقلّهم في قطارك"... هذان الرجلان اللذان أسهبت في الكلام عليهما الصحف، واللذان عذَّبا فتاةً ليرغما أباها على الإقرار، كنتَ تقلّهما في قطارك.

مساء ذلك الثلاثاء الذي سجا ليله وراق، وقاد فيه فرانسوا القطار في غمرة الجذل، كان من ورائه رجلان مثقَّلان بالعنف يتأهّبان للبطش بطفلةٍ. طفلةٍ... صحيحٌ أنّ فرانسوا حُرم الأبناء، ولكن كان

يبدو له أنّ جميع الأطفال أبناؤه، فينظر إليهم في سعادةٍ واحترامٍ. ومع ذلك كان، يقلّ في قطاره ذينك الوغديْن.

ومرّ بواحات النور التي عجزت عن لفت انتباهه، وجاز فوق النهر الذي قد طالما تمتّع بتأمّل صفحته المتغضّنة تحت ضوء القمر، وهو عنه في ذهولٍ، ولم يلحظ حقول الوزّال القادمة إلى لقياه في الظلام. "لقد كنت تقلّهما في قطارك". عبارة رئيس المحطّة هذه كانت آخذةً بكلّ مجامع خاطره. أَمن أجلهما إذن كان يتباطأ في لينٍ كي يوفّر عليهما الهزّات ما استطاع، أو من أجلهما تصدّى بجرأةٍ للمنعطفات المصعّدة لكي لا تنال من مسيرة القطار، في حين كانا هما يتأهّبان للتنكيل بطفلةٍ؟

في المحطّة الأولى لم يؤنس أيّة رغبةٍ في التطلّع من النافذة، ولم يصغِ إلى أصوات عمّال السكّة الحديديّة، ولم يُعر الصاعدين والهابطين من المسافرين اهتمامًا، إلى أن أيقظه الضوء الأخضر من أحلامه فانطلق من جديدٍ، ولم يلبث القطار أن استعاد سرعته النظاميّة. بيد أنّ فرانسوا لم يكن يحمله بكلّ ذراعيه وبصدره، كما ألف، ولم يعد يتوقّع في توقِ يقظة النهار. لقد كان انفصل عن القطار وانشدّ فكره إلى الوراء في تساؤلٍ وجيعٍ، فربّما كان في تلك الليلة، أيضاً، يُقلّ رجالاً ماضين نحو القتل، قساةً لا تأخذهم بالضعفاء رحمةٌ.

كان القطار يجري على امتداد خطٍّ بدا وهميًّا، في ليلٍ زركشت كثافتَه سلسلةُ الإشارات الضوئيّة الخضراء، ولكنّه كان يبدو وكأنّه

يجري من غير قائدٍ، ففرانسوا كان بعيدًا عنه بذهنه، تباغته حركات القطار بين حينٍ وآخر فيتعثَّر، وهو ما مرّ قطّ بمثل تلك التجربة. وعبارة رئيس المحطّة لا تني تطرق ذاكرته في إصرارٍ موجعٍ: "لقد كانوا في قطارك...".

في المحطّة التالية تلكّأ القطار بعض الشيء عن الانطلاق، بعد أن أضاءت الإشارة الخضراء، وبات في وسع مَن لهم بفرانسوا معرفةٌ وثيقةٌ التخمينُ بأنّ ذلك القطار لم يعد يستجيب لمنطق المواعيد والإشارات، وبأنّ دُوار الإنسان قد نشب بقلب السائق. وفقدت أمواج الليل رقّتها وشفافيّتها وأخذت تتصاعد إلى عيون فرانسوا في مثل أعاصير متشابكةٍ، وهو يتساءل: إلى أين يمضي كل أولئك المسافرين؟ ومن أجل أيّة مهمّةٍ؟ هل يكونون رحماء بمن سيقابلون من رجالٍ ونساءٍ؟ وهل يعرفون كيف ينشدون حياةً جديدةً عمّا قريب، في الغد أو بعد لحظات، على الرصيف حيث وقف آخرون ينتظرونهم؟ وعلامَ كلّ ذلك الحشد من المسافرين؟ أيّ قلقٍ يستبدّ بالناس؟ كلّ تلك التساؤلات يثيرها الليل عندما يفقد الإنسان مستندًا يلقي عليه عينيه. تساؤلاتٌ من أعماق الهوّة لا تصدي لها بشيءٍ عبارات الناس الباطلة! لقد كان قلب الليل يرين بكلّ وقره وبكلّ عبء العالم على صدر فرانسوا...

كان القطار ينحدر عبر أشجار الكستناء مثل ساقيةٍ تتلمّس طريقها في المنحدرات، وكان فرانسوا مندفعًا مع القطار، غير أنّ قرارًا كان ينضج وئيدًا في صدره: لم يكن يطيق الانطلاق بالناس في

مثل هذه السرعة، وقهر الليل من أجل تسليمهم إلى ليالٍ أشدّ كثافةً وإلى سورات العنف المجنونة. كان لا بدّ من عملٍ ما، لا بدّ من التحدّث إليهم ومن حسر النقاب عن عيونهم، فكثيرون منهم لا يدرون ما يفعلون، وكان لا مفرّ من مصارحتهم قبل بزوغ النهار، وكلّ شيءٍ ما زال، بفضل الليل، في حالة انتظارٍ، وقبل أن يلقي وَضَح النهار غلالة التفاهة على العالم والناس.

وتوقّف القطار في سكونٍ عند المنعطف الأخير على بعد مئة مترٍ من النفق، وصمتت محرّكاته بأمر فرانسوا، وفوق قمّة الهضاب المكسوّة بالأشجار والمثقلة بالعتمة كان قد ارتسم خطٌّ رقيقٌ منذرًا بدنوّ النهار، وهناك على صفحة التلّة الرحبة كان النور يولد.

واجتاح فرانسوا شعورٌ بسكون القطار الغافي وراءه، وانحدر منه متأمّلاً تلك الكتل الحديدية التي بدت وكأنّها في دهشةٍ من شللها المفاجئ. وسار فرانسوا بضع خطواتٍ وهو يمرّ يده في شعره، وبغتةً انتصب أمامه مدير الرحلة وفي يده مصباحٌ كهربائيٌّ، وابتدره في حدّةٍ:

– "ما الخطب؟ وما أمر المحرّكات؟ ولمَ نزلت؟"

– "لم أعد أطيق المضيّ قدمًا قبل أن أعرف... فقد كنت أنا مَن أقلّ في تلك الليلة الرجلين اللذين قتلا الطفلة في تولوز. ولذا أودّ أن أعرف... إذ لا يسعني أن أستمرّ على هذه الحال".

وتراجع مدير المحطّة خطوةً إلى الخلف وهو يتنفّس في عنفٍ وقد أرهقه الذهول. ثمّ تذكّر أنّ عليه وضع إشارة تحذيرٍ لتأمين

سلامة القافلة، فراح يجري نحو مؤخّرة القطار، وحزمة نورٍ تتوثّب معه في العتمة، وهو يردّد: "مجنونٌ، مجنون".

وأنزل أحد الركّاب زجاج النافذة سائلاً:

– "ما الأمر؟ هل اشتعلت فجأةً إشارةً ضوئيةً حمراء؟".

فرفع فرانسوا وجهه نحوه وقال:

– "كلاّ، ولكن قل لي أنت ما الذي حملك على السفر؟"

– "يا لقحتك! وما شأنك بسفري؟ وعلى أيّة حالٍ أنا قاصد تولوز لملاحقة أعمالي".

وتمتم فرانسوا:

– "أعمال...".

واستأنف المسافر:

– "وماذا عنك، أَنت!"

– "أنا أقوم بالرحلة، أنا سائق القطار".

– "إذن أنتَ على علمٍ بسبب توقّف القطار".

– "أجل، فأنا حريصٌ على معرفة مقاصد المسافرين والتثبّت أنّهم لا يبيّتون شرًّا".

وساد، لحظةً، عند النافذة، صمتٌ مرتبكٌ، ثمّ استأنف الصوت من جديدٍ:

– "آه! أمن أجل ذلك أوقفت القطار؟"

وردّ فرانسوا مؤكّدًا:

– "أجل فلن أستطيع مواصلة قيادة القطارات من غير أن أتساءل إلى أين يمضي الناس وما غرضهم من السفر".

ثمّ عاد النقاش فاحتدم بين مدير الرحلة وفرانسوا، وراحت حمّى الهياج تتفشّى في القطار، فاستيقظ بعض المسافرين فيما ظلّ آخرون مستغرقين في سباتهم، وحاول آخرون، وهم يدمدمون، استعادة ما أُفسد عليهم من نومٍ. وطفق بعضهم ينحدرون وهم يفركون بأيديهم عيونهم المثقلة ووجوههم، وشاع بين المقطورات أنّ السائق قد أُصيب بمسّ جنونٍ، وأنّه هو الذي أوقف القطار معرّضًا الركاب لخطرٍ داهمٍ، فلا بدّ من إعلام المركز، ولكن كيف السبيل إلى ذلك في منطقةٍ معزولةٍ. وتحلّق حول فرانسوا ومدير الرحلة جمعٌ أخذ يتضخّم عدده باستمرارٍ وتنبعث منه في مثل لازمةٍ صيحاتٌ "مأفونٌ، مجنون!"

أمّا فرانسوا فكانت أنظاره تنتقل من الواحد إلى الآخر وهو يردّد

– "وأنتم، ما غاية سفركم؟"

– "لا شأن لك بنا! عليك بعملك ونحن نهتمّ بشؤوننا".

أمّا هو فما فتئ يكرّر في عنادٍ:

– "لا، لن نواصل الرحلة على هذا النحو، ذلك مستحيلٌ. أنتم تعلمون أنّهم قتلوا منذ أيّامٍ طفلةً بريئةً في تولوز، وكنت أنا أقلّ القتلة في قطاري. وأنا لا قِبل لي بالاستمرار على هذه الحال، بل لا بدّ من التأكّد أنّ أحدًا من المسافرين لا يبيّت شرًّا".

وكان المسافرون يلتفتون إلى مدير الرحلة قائلين:

– "لقد فقد السائق عقله تمامًا، فأيّ حلٍّ ترى؟"

ويعيد فرانسوا الكرّة في لجاجةٍ:

– "بل حسْبي أن تقولوا لي إلى أين أنتم ذاهبون، وما تقصدون، فأنا لا أريد بكم سوءًا".

كانت بشائر النهار على ذؤابات أشجار الكستناء، والقطار السريع المتوقّف إلى جوار الساقية، وأغاريد الطيور الجذلى، تشكّل لوحةً تبدو غير واقعيّةٍ، في حين كانت لا تنفكّ تتضخّم حلقة الوجوه المثبتة على النوافذ، وقد انتفخت من الوسن، والرؤوس المشعّثة الشعر، والمسافرين الذين تزاحموا عند أبواب القطار، بين روائح المقطورات الدافئة الكثيفة وطراوة الصبح النديّة، وهم يردّدون: "إنّه لمجنونٌ، السائق مأفونٌ".

وانضمّ بعض الأولاد إلى المسافرين الصاخبين المتحلّقين حول فرانسوا الذي أرهقته عباراتهم وصرخاتهم ونظراتهم، ومع ذلك ما فتئ يردّد:

– "وأنتم، ما الذي جاء بكم إلى هنا؟ وما الذي تنوون عمله هناك؟"

واندسّ بين الجمع صبيٌّ جميلٌ ممتلئ المحيّا، ممسكًا بيد والده، فبادره السائق:

– "وأنت أيّها الصغير إلى أين أنت ماضٍ؟"

فردّ عليه صوتٌ رقيقٌ صافٍ:

– "إنّنا ذاهبون لزيارة جدّتي فهي مريضةٌ. ولكنّنا سنعالجها وستشفى".

ورفع فرانسوا رأسه، في حين تابع الصبيّ:

– "لماذا أحجم القطار عن متابعة سيره؟ إنّه لآلةٌ جميلةٌ. أنا أملك في البيت قاطرةً ولكنّها لا تسير في مثل سرعته. وكم أودّ أن أسيّر هذه".

وفي الحال توجه الصبيّ إلى السلّم الحديديّ مستأنفًا:

– "ألا تأخذني معك وتجعلني أقودها قليلاً؟"،

وأفاق فرانسوا من ذهوله، فسأل الصبيّ:

– "أتودّ أن تشاهدها حقًّا؟".

وراح الصغير يصفّق، وتسلّق الدرجات الثلاث، ودهش أمام المقابض المتوهّجة، في حين كان وراءه السائق يبتسم، والمسافرون على الأرض يتطلّعون في ذهولٍ.

وصاح مدير الرحلة:

– "هيّا، عودوا إلى أماكنكم، ألا ترون أنّ الأمور قد سوّيت؟ هيّا اصعدوا".

ولكنّهم كانوا ما زالوا قلقين:

– "وهل ندع مجنوناً يقودنا؟ أولا تقيم للأمر حسابًا؟ إنّه أمرٌ لا يصدّق!"

وسرعان ما دبّت الحركة من جديدٍ بالآلة الكبيرة، فيما مدير الرحلة كان يطلق من صفّارته إشاراتٍ قلقةً ملحاحةً، ويومئ بكلتا يديه. ولم يجد الموظّفون وعمّال السكّة والمسافرون بدًّا من العودة إلى أماكنهم.

وكان النهار يتسلّل، ساعتئذٍ، داخل النفق وضوؤه يتــوهّج فــي الطرف الآخر، والقطار يمضي بكلّ تصميمٍ. وقد وقف مدير الرحلــة من وراء فرانسوا مردّدًا في رفقٍ: "تمهّل". إلاّ أنّ السائق لــم يكــن يلوي على أحدٍ، وقد انسجم مرّةً أُخرى، مع آلته التي اندفعت في ثقةٍ وسرعةٍ.

وعندما توقّف القطار أخيرًا في المحطّة، طالع جموعَ المستقبلين منظرٌ غير مألوفٍ، إذ رأوا إلى جوار السائق صبيًّا أشــرق وجهــه بالحبور، وقد قبضت يداه على المقاود، وانتشى بسيطرته على الآلــة الجبَّارة.

٨

عازف الناي

عازف الناي

مثل إيقاع المطر المنهمر، كان وقع أقدام المسافرين يدوّي في رأس فوزي وصدره، وهو قابعٌ في زاويته المعهودة من الساحة المزدحمة بسيارات الباص. كان يخيّل إليه أنّ المطر يتساقط رتيبًا في داخله، فيما وقع الأقدام لا ينقطع، يشتدّ كثافةً أحيانًا، ثمّ تخفت نأمتُه، وتخرس الأصوات، فلا تومض حتّى رنّة قطعة نقدٍ في علبته المعدنيّة.

كانت أصابع ذلك الفتى الأعمى قد تجمّدت فوق ثقوب الناي، وأبت شفتاه الانفراج عن أيّة نغمة. لقد صدَف عن العزف، بل بات عاجزًا عنه. منذ لحظات، همّ باستئناف ما كان قد ألفه من قبل، بحيث يملأ الجوّ بأنغامٍ شجيّةٍ تلفت إليه الأنظار، وتحمل الأيدي على نفحه بعض نقودٍ. إلا أنّ المِحن التي انهالت عليه كانت قد أطفأت فيه كلّ نورٍ، فلم يعد يملك ما يجود به من نغمٍ، وباتت خطى الناس ترنّ، في لامبالاةٍ، على الأسفلت القذر، وتهصر قلبه. حتّى نداء الناي قد خبا وعجز عن تحريك أصابعه وشفتيه. ووسط أمواجِ الأقدام البشريّة المتلاحقة، أمسى فوزي هنةً مبهمةً لا يأبه بها أحدٌ

لا أحد... لثلاثة أشهرٍ خلت، كان فوزي قد أنصت إلى احتضار أمّه، وكانت حَشْرجتها تخترق كلّ كيانه، بين الفينة والفينة، كان

يمسك بيدها اللاهبة المتداعية، ويسمع تمتمة الجارات: "ما الذي سيحلّ بهذا الفتى الأعمى المسكين، حين يصبح وحيدًا؟".

ما عرف فوزي له أبًا، وأمّه كانت تخدم في المنازل. أَمّا هو فكان يتجوّل ليبيع بعض الأشياء الزهيدة الثمن، وحين ينال منه التعب، يلجأ إلى زاويةٍ في ساحة المدينة، فيعزف بنايه، مستدرًّا بعض الإحسان. كم كان سعيدًا بالعيش مع والدته! في المساء كانت رنّات ضحكهما تدوّي من أعماق الغرفة الثاوية في طرف الفناء المعتم، فيبتسم الجيران متعجّبين.

وفي منزلٍ مجاورٍ، كانت "ماري" تجول بأبصارها على الوجوه من حولها، مستفسرةً عن أسباب البسمة المفاجئة، فهي صمّاء وبكماء بالولادة، وكان لا بدّ من إيماءات والدها كي تدرك ما يحدث، فتبتسم بدورها. لم تكن ماري تملك سوى عينيها لالتقاط صدى العالم والحياة، وخلجات قلوب الناس. وكان لها أَيضًا ذراعان طويلتان نحيفتان، تتدفّقان، سحابة النهار، وشيًا جميلاً، وهي قابعةٌ إلى جانب النافذة...

عندما كانت طفلةً كانت تختلف إلى منزل أمّ فوزي، وأَحيانًا تأخذ بيد الصبيّ الأعمى لتقوده إلى منزل ذويها، عبر دهليزٍ متعرّجٍ. وكان فوزي يؤنس سعادةً غامرةً لمجرّد إمساكه بتلك اليد النحيلة، وقد عَرَض له أن لمس أَيضًا شعرها الطويل. ومنذئذٍ، كان كلّما جيء على ذكر النور، يطفر فكره صوب شعر جارته الصغيرة.

ولكن كيف السبيل إلى اتصالٍ أو عبثٍ بينهما؟ عندما كبرا قليلاً

كان فوزي قد انغلق على نفسه في حين استحوذ الخَفَر والخشية على ماري، فالتزمت نافذتها، واقتصرت على تأمّلٍ أخرس. عليه يخيّم ليلٌ، وهي يملؤها صمتٌ مطبقٌ: كم السُبُل بين الناس دقيقةٌ، أحيانًا!

وكان لفوزي كلبٌ يقوم له مقام دليلٍ بارعٍ أمينٍ، وكانت ماري شغوفةً به، غالبًا ما تجود عليه بقطعة سكّرٍ، أو ببعض عظامٍ، أو بجزءٍ من طعامها، وتقضي ساعاتٍ طويلةً في الدهليز تداعبه، حتّى توطّدت بينهما ألفةٌ راسخةٌ. كانت الفتاة شديدة الإعجاب بعيني "فوكس" البرّاقتين، وبرأسه الدقيق، وبشعره الداكن، وبذيله المقنزع، وبجسمه الضامر المتوثّب مثل وترٍ مشدودٍ، والمتأهّب أبدًا لقيادة مسيرة فوزي.

ما أعذب الاتصال بالكلاب والإحساس بأفراحها المتواضعة، وبالفقر الذي نشترك فيه معها، وبصراحتها الصامتة، حتّى لتبدو أحيانًا وكأنّها "لا ينقصها سوى الكلام"! في حين أنّنا نادرًا ما نستطيع ادّعاء النفاذ إلى أعماق وجدان حتّى أقرب الناس إلينا، في عالم البشر ودنيا الكلام.

عندما فارقت أمّه الحياة، دنا منها فوزي، وانهال عليها، محيطًا إيّاها بذراعيه، فتسرّبت إلى أعماقه قشعريرةٌ جارحةٌ، وشدّته إحدى الجارات، برفقٍ، إلى الخارج، حتّى يتسنّى إلباس الميتة ثياب الدفن. ولمّا أمسى من جديدٍ وحيدًا مع الجثمان المسجّى، أرهف السمع، وهو يدنو من والدته منصتًا بكلّ كيانه، ولكنّه لم يسمع سوى الصمت، صمتٍ مطبقٍ لم يتردّد، قطّ، له مثيلٌ في ليل نفسه. حينئذٍ، أخذ وجهَ

أمه بين راحتيه وكأنّه يطبقهما على وردةٍ رقيقةٍ. لقد كان الوجه قاسيًا باردًا مثل تلك الوجوه الرخاميّة التي أُتيح له يومًا جسّها في المتحف. ولا ريب أنّه، مثل تلك الوجوه، كان جميلاً.

لقد كانت رياح الثورة تزمجر في صدره، وبودّه أن يصيح، بملء شدقيه، أنّ ذلك مستحيلٌ غير صحيحٍ ولا يمكن أَن يكون حقًّا. وحين يغلبه السهاد والنَصب، كان يغفو دقائقَ معدوداتٍ ثمّ لا يلبث أَن يستيقظ مذعورًا، ويخيّل إِليه أنّه كان ضحيّة كابوسٍ، فيهرع إلى الوجه الحبيب، ليجسّه من جديدٍ.

ثمّ كان ضجيج أَقدام أناسٍ ملأوا الحجرة، والنعش القادم وهو يصدم الجدران. وللمرّة الأخيرة داعب فوزي الوجه البارد، وقبّله مرتعدًا، ثمّ جرّه الجيران بعيدًا، وخرجوا بالجثمان، وهو يلحق به وكأنّه في غيبوبةٍ.

عاد إلى البيت وقد هدّه اليأس وجاشت في صدره عاصفةٌ هوجاء امتزجت فيها الثلوج واللطمات والصيحات الحادّة... كيف يقوى إنسانٌ على مكابدة كلّ هذا القدر من العذاب؟

وحينئذٍ، ظهر "فوكس" من جديد. كان الكلبُ المسكين قد انزوى بعيدًا عندما دخل الموتُ البيتَ. مرَّةً واحدةً، تسلّل إلى الغرفة الحزينة، ولكنّه لم يقوَ على احتمال جوّها المثقل بالحزن، المشبع بالتعاسة، فجأر بعواءٍ مفجعٍ ارتجفت معه كلّ شعرةٍ فيه، وسرعان ما تسلّل خارجًا.

كان مقعيًا، كئيبًا، في إحدى زوايا الدهليز، غير أنّ ماري قد رقّت لحاله وعُنيت به، مشاركةً إيّاه حزنه. وعندما مضى الناس بالنعش، زمجر محتجًّا، ولكنّه، للمرّة الأولى، لم يهرع ليسير أمام فوزي الذي كانت تحيق به جمهرةٌ من الجيران والجارات. وحينما قفل فوزي عائدًا، حدجه "فوكس" بنظراتٍ وَجِلةٍ حائرةٍ، من الزاوية المظلمة التي اعتكف فيها، إلاّ أنّه عندما سمعه يبكي، وحيدًا، في المطبَخ، فتح الباب بإحدى قوائمه ودنا منه مؤاسيًا، وقد طأطأ رأسه وذيله، وراح يبحث بخطمه عن يد فوزي الملقاة على ركبته، محاولاً رفعها والانحناء تحتها، ثمّ أقعى وطفق يرنو إلى الوجه الحزين. وفجأةً وضع قائمتيه على ركبتي فوزي، وفي صيحة ألمٍ ونداءٍ، هبّ نحو وجهه فارتطم خطمه البارد بأنف سيّده، وإذا بيدي الأعمى تتحرّكان من جديدٍ فتداعبان الحيوان المسكين الذي أخذ ينتفض جَذَلاً وعرفانًا بالجميل. ومنذئذٍ تابعا حياتهما في ألفةٍ حميمةٍ.

كلّ صباحٍ، كانت ماري تشاهد "فوكس" يتقدّم فوزي رافعًا إليه أبصارًا يَقِظةً، كلّما همّ باجتياز الدرجة العالية عند مدخل البناء. وكان "فوكس" يرشق نافذة ماري بتحيّةٍ خاطفةٍ لا يجرؤ على إطالتها، فمهمّته لا تتيح له التشتّت أو التلهّي، وهو يسير في حيطةٍ، فاغرًا فاه، وقد شدّ الانتباه كلّ أعصابه، يعدّ كلّ خطوةٍ من خطوات سيّده المتردّدة، فيما هذا يتلمّس طريقه من خلال مقود كلبه الذي أمسك به عاليًا، مصغيًا إلى خلجات دليله، ووجهه مشرعٌ نحو السماء.

وانقضت سنةٌ ظلّ فوزي في أثنائها، كلّما أوى إلى فراشه، يسمع

في داخله حشرجة أمّه المحتضرة، فينتابه من جرّاء ذلك دوارٌ قاتلٌ. إلاّ أنّه ما يلبث أنّ يصغي إلى غطيط "فوكس" فيسكن جأشه. وكان قد عاد يُعنى بالطهي وإعداد طعامه، على نحو ما كانت قد لقّنته أمّه، فيلقى، في ذلك، بعض سلوى. وكان الناي أيضًا يفسح له سانحةً للتفريج عن كروبه الدفينة، وصخب السوق يسهم في إبعاده عن سيطرة الحزن. ثمّ إنّ "فوكس" كان، أبدًا، ملازمًا له في وفاءٍ مطلقٍ، وحتّى عندما كان يبدو نائمًا، وقد ألقى رأسه على قائمتيه الممدودتين، كانت عيناه، بلا انقطاعٍ، مفتوحتين شاخصتين إلى سيّده. وكانت ماري ترقبهما صبح مساء، في ذهابهما وإيابهما، فيتَسرّب الاطمئنان إلى نفسها مع عودة الإشراق إلى وجه فوزي وزوال التوتّر عن "فوكس".

إلى أن حلّ صباحٌ مشؤومٌ... فقد اختفى "فوكس" ولم يرجع عند الظهيرة ولا في المساء. أَخطفه أَحدٌ أم دهسته سيارةٌ؟ راح الجيران يبحثون ويتحرّون، ولكن من غير طائلٍ، فلا خبر ولا أَثر. وقبع فوزي يومين، فثلاثة أيّامٍ، يترقّب عودة صديقه ودليله، وقد أمضّه القلق، حتّى إنّه فقد كلّ رغبةٍ في طعامٍ، أو نومٍ، أو حركةٍ.

وعصف بنفسه إعصارٌ من اليأس. لمَ تختار النكبات التعساء لتنقضّ عليهم بلا هوادةٍ، ملحقةً بهم الضربة إثر الضربة؟

وانقضت الليلة الرابعة، وهو في وحشته الموجعة، لم يعرف للنوم طعمًا. مئة مرّةٍ تقلّب فوق فراشه حيث كانت الوسادة تجيش بالحمّى، ومئة مرّةٍ، عاش، من جديدٍ، موت أمّه وكأنّ الموت يحوم حول كيانه، يدعوه ويشلّه.

أجل! بات الموت هو المنقذ الوحيد، فما يعانيه أَقسى من الموت، وقد انقطعت كلّ وشيجةٍ تربطه بالحياة. إنّه يعرف جيّدًا طريق النهر، ولا بدّ له أن يلقى، في صحراء المدينة، أيادي شفوقةً تساعده على اجتياز الطرق، حتّى يصل إلى المياه التي تمنّاها لحدًا مريحًا.

ورأت ماري فوزي مذهولاً، شاحبًا، ساهمًا، متجهّمًا، يجتاز الدهليز وعصاه البيضاء تقرع الأرض والجدران في تردّدٍ وعصبيّة. هي أَيضًا، كانت قد بكت "فوكس" وساورها، حول فوزي، قلقٌ جمٌّ. وعندما أومأت مستطلعةً رأي ذويها في ما سيحلّ بجارها المسكين الوحيد، رأت أيديهم ترتفع مشيرةً بالعجز والحيرة والتسليم لقضاءٍ يشقّ إدراكه، وقرأت الحزن على وجوههم، ومنذئذٍ جفاها النوم.

وعندما شاهدته يخرج خيّل إِليها أنّ شبح الموت كالظلّ يسير إلى جانبه، فنشب في صدرها قلقٌ عاصفٌ، وفارَ الدم في صدغيها، وانتابها دوارٌ وجيعٌ، إذ استشفّت، في ومضةٍ، مأساةً رهيبةً.

وإذا بها مدفوعةٌ بقوّةٍ لم تعرف مصدرها. لم تُخطِر أَحدًا ولكنّها انطلقت في إِثر فوزي، تعدو في الشارع مذعورةً. دمدم بعض المارّة: "إنها لمجنونةٌ" وطفقوا يتلفّتون إليها في فضول، بعد أَن يمرّوا بها. أمّا هي فكانت ساهمة الأبصار، تنشد إنساناً وحيدًا، ها هوذا يحاول حثّ خطاه، ولكنّه، في كلّ خطوة، يصطدم بأحد المارّة، وقد يهمّ بعضهم بزجره، إلا أنّهم يُحجمون فجأةً عندما يبصرونه عن كثبٍ.

لقد باتت الآن على مقربةٍ منه ولكنّها لا تدري ما تفعل. تتلفّت، مرتعدةً، يمنةً ويسرةً. أمّا فوزي فيبدو متردّدًا ويزداد قرع عصاه

عصبيّةً، ولكنّه يشعر أنّه قد دنا من الجسر المطلّ على النهر، وهي في إثره فاقدة اللبّ.

وتوقّف فوزي، وأصغى لحظةً إلى صخب السيّارات والشارع يضجّ وراءه، وتقدّم بضع خطواتٍ ثمّ توقّف من جديدٍ. إنّه الآن يسمع خرير الماء ونداء الأعماق الآسر، ويرفع وجهه المكفهرّ المتشنّج، في تساؤلٍ وجيعٍ نحو السماء، ثمّ يُطرق، ويقذف بعصاه بعيدًا، ويهمّ، في خطًى متعثّرةٍ، بإلقاء نفسه، وإذا بيدٍ تقبض على ذراعه في عنفٍ، ويسمع تنهّدًا ولهاثًا قلقًا، ويدرك أنّ إنسانًا يقف إزاءه، وجهًا لوجهٍ، حائلاً دون نداء الأعماق.

الصمت والليل جداران يتقابلان.

حاول، مرّةً أُخرى، أن يخطو الخطوة الحاسمة، ولكنّ أَصابع رقيقةً اشتبكت بأصابعه تبلّغها رسالة حبٍّ وأملٍ. وخطرت في مخيّلته ذكرى "فوكس"، وغمر محيّاه لهاثٌ حارٌّ، ثمّ لامس أنفٌ أنفه، وامتدّت يده المرتعشة إلى الشعر المسترسل الطويل، تتفحّصه بين الإبهام والسبّابة، وهرعت إلى خاطره ذكرى شعر جارته الصغيرة، فأشرق بغتةً في داخله نهارٌ يتدفّق نورًا.

ورأت ماري شفتيه تلفظان اسمها، رأت خصوصا السكون يغشى محيّاه ويشيع فيه النور، وذراعه تهبط في تؤدةٍ، وهي، إزاءه، سجينة الصمت، غير مدركةٍ لما فعلت، ولا عارفة ما يتوجّب عليها فعله.

وانحنت فأخذت العصا البيضاء المرمية، وأمسكت باليد الكبيرة

الحيرى، وها هما يقفلان عائدين بقلبين واجفيْن دافئين. كان هو يردّد، لدى اجتيازهما الشوارع المزدحمة "حذار، يا ماري، من الشارع"، أمّا هي فكانت تلتفت، بين الفينة والفينة، لتغمره بأنظارها الحانية.

وأمس، بُعيد الظهر، انطلقت نغمات الناي من جديد، مغطّيةً رتابة مطر الأقدام الذي لا ينقطع له انهمارٌ، في ساحة المدينة، ومفعِمةً الجوّ بصيحات الأمل والفرح، وبات، لكلّ شيءٍ، وقعٌ قشيبٌ.

٩

الأستاذ فؤاد

الأستاذ فؤاد

جميع أَهل القرية قد أَهملوا، يومذاك، مشاغلهم اليوميّة، وارتدوا أنظفَ ما لديهم من ثيابٍ داكنةٍ، وتعالت من نفوسهم الخاشعة زفرات حسرةٍ كلّما بعث جرس الكنيسةِ، بين الفينة والفينة، رنّاتٍ بطيئةً حزينةً، مثل دموعٍ كبيرةٍ تتساقط.

فقد كان عليهم أَن يؤدّوا واجب التكريم الأَخير لمعلّم المدرسة، الأستاذ فؤاد، الذي ما انفكَّ يربّي أَجيال القرية منذ نحو نصف قرنٍ، عليهم أَن يعبّروا له، للمرَّة الأخيرة، عن شكرهم وتقديرهم، ويقودوه في موكبٍ لائقٍ، إلى مثواه النهائيّ، وهو حَدَثٌ، والحمد لله، نادر الحدوث في القرية. كانوا يودّون أن يسبغوا على هذه المناسبة أوفر قدرٍ من مظاهر الإجلال، وأَن يواكبوا النعش بأكبر عددٍ من أَكاليل الزهور رأته القَرية يومًا، غير أَنّ وصيّة المرحوم قد حالت دون تحقيق هذه الرغبة، فهو قد أراد أن يتّسم مأتمه بالصمت، والبساطة المطلقة، والخلوّ من الزهور، لا بل حتّى من الصلوات والترانيم.

صحيحٌ أَنّ كثيرين من أَهل القرية ما زالوا يتحسَّسون على قفا رقابهم صفعاته الحازمة، التي، لولاها، لما تحرَّروا من كسلهم، ولما ظفروا، يومًا، بالشهادة الابتدائيّة أو الإعداديّة، ولكنّهم، جميعهم،

يحتفظون، خلف جفونهم، وفي حنايا صدورهم، بصورةٍ مشرقةٍ لذلك الإنسان الطيّب، الذي كان يتفانى من أَجلهم. فـإثر سـاعات النهـار المضنية، التي كان خلالها يجهد لإِقحام المعارف الأَساسيّة في أذهان الصغار، كان في المساء يعكف، في صبرٍ أوفر، على تعليم الأميّـين من الكهول. وربّما كان يبحّ صوته، ولكنّه لم يكن، قطّ، ليتخلّى عـن وداعته وأَناته؛ هذا، فضلاً عن تلقينه الفلاّحين أسلوب تطعيم الأشجار المثمرة، واستخدام الأسمدة الحديثة؛ وفوق كلّ شيءٍ، كان يعلِّم الجميع التعاون، وينشر في القرية الوفاق والسلام، ويسكب في القلوب رغبةً صادقةً في التحلّي بالطيب والدماثة ورفعة الأخلاق التي كان لها قدوةً ومثالاً.

لقد كان معلّمًا حقًّا!

والأستاذ فؤاد كان علمانيًّا، لا يقيم لطقوس الدين وزنًا، ولم يـؤمّ الكنيسة منذ صباه. غير أَنَّ علاقته مع الخوري كانت مسالمةً، بل كان يزوره في مطلع كلّ سنةٍ مهنّئًا. وكان حريصًا على احترام مواعيـد التعليم الدينيّ، فيُخلي مكانه، في المدرسة، لرجل الدين، ولـم يكـن يحول دون إِهمال أطفال الجوقة بعض الدروس، من أجل الاشـتراك في مناسباتٍ دينيّةٍ طارئة. وحين كان يتلفّظ باسم يسوع المسيح، كان يحيطه بقدرٍ من الإِجلال يمنع أيّ سامعٍ من التجاسر على اسـتجوابه حول معتقداته الدينيّة.

وكان الأستاذ فؤاد قد تقدّم في السنّ وظلَّ أعزب، وحيدًا... ولـم يجسر أَحدٌ على سؤاله عن سبب إِعراضه عن الزواج، وهل كان ذلك

ناجمًا عن صدمةٍ عاطفيّةٍ أو مغامرةٍ فاشلةٍ، في عتبة الشباب، كان تأثيرها حاسمًا على حياته، فحبّه للمدرسة ووفاؤه لها كانا يجعلان مثل هذا السؤال في غير محلّه، إذ كانت المدرسة له أكثر من زوجةٍ وأَحبَّ من عيلةٍ.

عند الظهيرة كان يقرأ الصحيفة، ويجول بين الحقول، يحيّي الفلاّحين، ويستمع إلى شكاواهم وتطلّعاتهم، ويحدّثهم في السياسة والمستقبل، ويترك لهم البسمة والأمل، وفي المساء، بعد استراحةٍ في المقهى، يروّح بها عن نفسه "بدقّ طاولة"، كان مصباح غرفته يظلّ حتّى ساعات الفجر، يبعث نوره فوق دفاتر الطلاّب، والكتب والمجلاّت والموسوعات.

لقد كان الأستاذ فؤاد طيّبًا حقًّا، وجديرًا بالاحترام.

وعندما أُحيل على التقاعد، أَخذ الهزال ينال منه يومًا إثر يومٍ. لقد كان يحتفظ ببسمةٍ شاحبة. إلاّ أنَّه بات يتتبّع، أكثر فأكثر، أشعّة الشمس ليستدفئ بها. وتناقل أهل القرية، حوله، أنباءً مقلقةً، وحاولوا، التسرية عنه، فعيّنوه رئيسًا فخريًّا للبلديّة، بيد أنَّ ذلك لم يوقف تدهور صحّته، ولا أعاد له هيبة المعلّم وحماسه. وأَكثرَ الخوري من التردّد عليه، وعيادته، فكانا يقضيان، معًا، ساعاتٍ في حديثٍ يخفّف من وطأة الزمن الثقيلة، وكان الأستاذ فؤاد يردّد للكاهن قوله: "أنا قد انقضى عهدي، وأَرجو أَن يفعل الشباب أَفضل ممّا فعلنا نحن، وأَن تسود العالم، يومًا، أخوّةٌ أَصدق وأَوسع". غير أنَّ أحاديثهما لم تكن لتتعدّى مثل تلك المواضيع العامّة.

وحين أُعلنت وفاة الأستاذ فؤاد، هرع الخوري، فساعد في إلباسه ثياب الدفن وكان أوّل القائلين بوجوب احترام وصيّته.

لقد كان الخوري، هو أيضًا، إنسانًا طيّبًا، وكان يجهد في أن يكون مسيحيًّا صادقًا، حقًّا.

أمَّا نفس الأستاذ فؤاد فقد ظلّت، للوهلة الأولى، شبه مخدّرة، في حين كان أهل القرية يمرُّون أمام الجثمان المسجّى ويكيلون للفقيد المديح، وكانت تؤنس شيئًا من الغبطة المبهمة؛ إلاّ أنّها كانت منهمكة في التكيّف مع وضعٍ مستحدثٍ، لا يشاركها فيه الجسد بأيّة حركةٍ، تستيقظ وحدها على عالمٍ جديدٍ. وقد بقيت جامدةً، غارقةً في ضربٍ من الذهول، عندما مُدِّد الجثمان في صندوقٍ، وحُمل على الأكتاف، واقتيد خارج البيت، ولكنّها وجدت ذاتها فجأةً تتحفّز، شديدة التأثّر، لدى رؤية طلاّب المدرسة، منتظمين في صفٍّ، يذرفون دموعًا صامتةً صادقةً، كلّهم بلا استثناءٍ، حتّى "سليم" الذي كانت بلادته تصيب الأستاذ بالكثير من الضيق، و"رجا" العفريت الذي لم يكفّ يومًا عن بهلوانيّاته، صارفًا انتباه أترابه عن الدراسة؛ وإذ بنفس الأستاذ تخفّ إليهم وتختلط بهم، بالأحبّاء الصغار، محاولةً مؤاساتهم؛ إلاّ أنَّها ظلّت عاجزةً عن تفسير كيف خرجت وصارت إليهم.

ولكنّها ما لبثت أن عادت، على عَجَلٍ، إلى الصندوق؛ فمع أنَّ سير الموكب كان وئيدًا، إلاّ أنّ الطريق إلى المقبرة قصيرٌ، والدفن قد بات وشيكًا، والجميع يحملون الأمر على محمل الجدّ، فلا بدّ من مسايرتهم. وخَطَرَ لنفس الأستاذ فؤاد أنّها لم تفطن إلى حالة الطقس

الذي كان سائدًا. ولم تستطع أن تتذكّر سوى كلبٍ كان مقعيًا إلى جانب جدارٍ، مكتئبًا، يتطلّع في ذهولٍ، وعلى مآقيه آثار دمعتين.

في المدفن لم يَطُل الأمر، وقد مرَّ الأطفال على التوالي أمام القبر، وبعضهم لم يقوَ على الامتناع عن الانتحاب بصوتٍ عالٍ. ودهشت نفس الأستاذ فؤاد إذ رأت أَنَّ العفريت "رجا" كان بين المنتحبين.

وكان الخوري هو آخر مَن مرَّ أمام القبر، وعملاً بوصيّة المرحوم، اقتصر على نظرة أَسى، ومضى: لا صلوات، ولا طقوس. وشاعت الطمأنينة في نفس الأستاذ فؤاد.

وأخيرًا رأت حفّار القبور يغادر المقبرة، موصدًا بابها الحديديّ؛ وشيئًا فشيئًا، عادت صيحات عبث الأولاد تتعالى من الحارات البعيدة، واسترجع ضجيج حياة القرية وقعه الرتيب.

حينئذٍ، شرعت نفس الأستاذ فؤاد تتساءل: "أَوَلم أمُتْ؟ أَنا كنت واثقةً أنّ الموت هو نهاية كلّ شيءٍ. ما هذا الذي يحدث، إذن؟" غير أنّها أبت الاستسلام إلى قلق هذه التساؤلات التي كانت قد اتّخذت، بشأنها، قرارًا حاسمًا، لسنواتٍ طويلةٍ خلت، فراحت تجوس خلال القبور، تلهو بقراءة العبارات المحفورة عليها: كان بعضها طريفًا، وبعضها يخفي لوعةً صادقةً، وكثيرٌ منها يترجّع له صدًى مثل طنين الطبول.

ثمّ قفلت راجعةً إلى القبر، وأخلدت إلى سباتٍ مضطربٍ: فقد كانت ومضاتٌ متلاحقةٌ تبدّد، بين الفينة والفينة، عتمة الحفرة المغلقة.

واستيقظت في الصباح، صافية الرؤية، على تساؤلٍ ملحاحٍ: "أنا ما زلت واثقةً من صواب علمانيّتي، متيقّنةً من عدم وجود عالمٍ آخر. ولكنّ أيّ تفسيرٍ لبقائي ويقظتي، بعد أن مات منّي الجسد؟" وتواردت إليها ذكريات الطفولة، والتعاليم الدينيّة حول السماء والمطهر وجهنّم، وامتزجت هذه الذكريات بالارتياب، واشتدّ التساؤل لجاجةً، إلى أن عزمت على البحث عن حلٍّ، وهمّت في التصعيد شطر السماء، لاستجلاء السرّ. وفي غضون لحظاتٍ ألفت ذاتها فوق التلال، وما لبثت أن غاصت في جوف ضبابٍ كثيفٍ لا نهاية له. لم تدرِ كم من الوقت ظلّت تحلّق، غير أنَّ شعورًا بالسخط استبدَّ بها، على حين غرّةٍ: سخطٍ على ذاتها، بسبب استسلامها إلى أوهامٍ قد قضت عليها منذ زمنٍ طويلٍ. وإذ بها، مرّةً أُخرى، فوق القبر، حيث كانت الريح تعبث بأوراق الصفصاف المتساقطة، وتعزف بين أغصان السرو لحنًا شجيًّا.

وانقضى الليل سريعًا، وأفاقت نفس الأستاذ فؤاد، على دقّات جرس الكنيسة الفضّيّة، تتموّج على نسمات الصباح الصافي، ووجدت ذاتها، على غير شعورٍ منها، على جناح تلك النسمات، مبحرةً شطر الكنيسة.

تردّدت، هنيهةً، مذهولةً: "أيعقل أن أغشى، أنا، الكنيسة، في هذا اليوم من أيّام الأسبوع، وأنا الذي لم يجتز بابها منذ طفولتي، لا في يوم أحدٍ، ولا في يوم عيدٍ؟". إلاّ أنّها استأنفت إبحارها بعد أن تذكَّرت أنّها، في معزلٍ عن الجسد الثاوي في القبر، لن يكتشف أحدٌ حضورَها. ثمّ إنّ شوقها إلى رؤية خوري القرية، من جديدٍ، كان

يبرّر هذا الاقتحام. فهذا الرجل الطيّب، الذي يؤدّي واجباته في إنسانيّةٍ متجرّدةٍ، كان أَثيرًا إليها، ولئن تباينت بينهما، المذاهب.

وأدهشها أنّ الكنيسة كانت غاصّةً بالمصلّين الخاشعين، وبينهم العديد من طلاّب المدرسة، إلاّ أنَّ دهشتها بلغت الذروة، عندما التفت الخوري نحو الجمهور قائلاً: "لقد رغبتم في أن نلتئم لنشترك معًا في الصلاة من أَجل فقيدنا الغالي الأستاذ فؤاد، وحسنًا فعلتم: فقد كان مربِّيًا لعددٍ كبيرٍ منكم، ووقف حياته على خدمة أبنائكم، وكلّ يومٍ، بأسلوبه الخاصّ، كان يخدم الله، في الأطفال. فلنسأل له الرحمة، والراحة الأبديّة".

وانتفضت نفس الأستاذ فؤاد، ودفعتها المفاجأة خارج الكنيسة، في مثل ومضة برقٍ. فكيف لها الاشتراك في طقوسٍ دينيّةٍ تُقام من أجلها، هي؟ ولكن بعد أن سكن جأشها، حلَّ التأثّر محلّ المفاجأة، فقد تعدّى موقفُ الكاهن، المفعم حبًّا وتقديرًا، لرجل قاطعَ الدين والكنيسة سحابة حياته، كلَّ توقّعٍ. وفجأةً، انفجرت من نفس الأستاذ فؤاد، في لاشعورٍ، ودفعةً واحدةً، كلّ الدموع التي كانت قد حبستها مدى إِقامته على الأرض.

ثمّ راحت تنشد بعض هدوءٍ، أو، ربّما بعض أنسٍ، في المقهى، غير أنّه كان ما زال خاليًا، والمناضد بعضها فوق بعضٍ، وخادمة المقهى قد باشرت لتوّها الكنس والتنظيف. وكان الطلاّب، ومعظمهم قادمٌ من الكنيسة، في طريقهم إلى المدرسة، فالوقت يدنو من الساعة التاسعة، موعد بدء الدروس. وكم كانت تعني تلك الساعة في حياة الأستاذ فؤاد!

وضاقت نفسه ذرعًا بذلك الموت الذي تبقى فيهـــا يقظـــى. إذن، ليس الموت هو النهاية، ولا هو الانسياب في العدم؟ وتـــردّدت فـــي حناياها كلمات الخوري: "كان يخدم الله، في الأطفال"، أحقًّا، إذن، كان يخدم الله، على غير علمٍ منه؟

وشدّها التوق إلى المدرسة، وإلى الأطفال الأحبّاء، وإذ بها بـــين ظهرانيهم. كان الأستاذ الجديد يلقي دروسه، والجميع متعلّقون بشفتيه. كان يحدّثهم عن الفقر في العالم، وواجبات الأخوّة، وكلّهم منـــصتون في اهتمامٍ، حتّى العفريت "رجا". كانت نفس الأستاذ فؤاد تحسّ وكأنّ اندفاع المعلّم الشابّ يمرّ عبرها، هي، وكانت تكـــاد تلمـــس خفقـــات قلوب الأطفال، وتراهم ينمون، ويترعرعون في عالمٍ أوفر إشـــراقًا، وأخوَّةً، وتتّضح هذه الرؤية على نحوٍ عجيبٍ.

وطال بها الأمر على هذه الحال. كم طال؟ إنّها عاجزةٌ عن الإجابة. إلاّ أنّها كانت تؤنس في داخلها نورًا تتّسع رقعته باطّرادٍ، وصوتًا خافتًا عذبًا يناجيها. وحينئذٍ أدركت أنّها، من خلال تلك المدرسة المتواضـــعة كانت قد دخلت، خلسةً، في رحاب الأبديّة، في ملكوت الله.

١٠

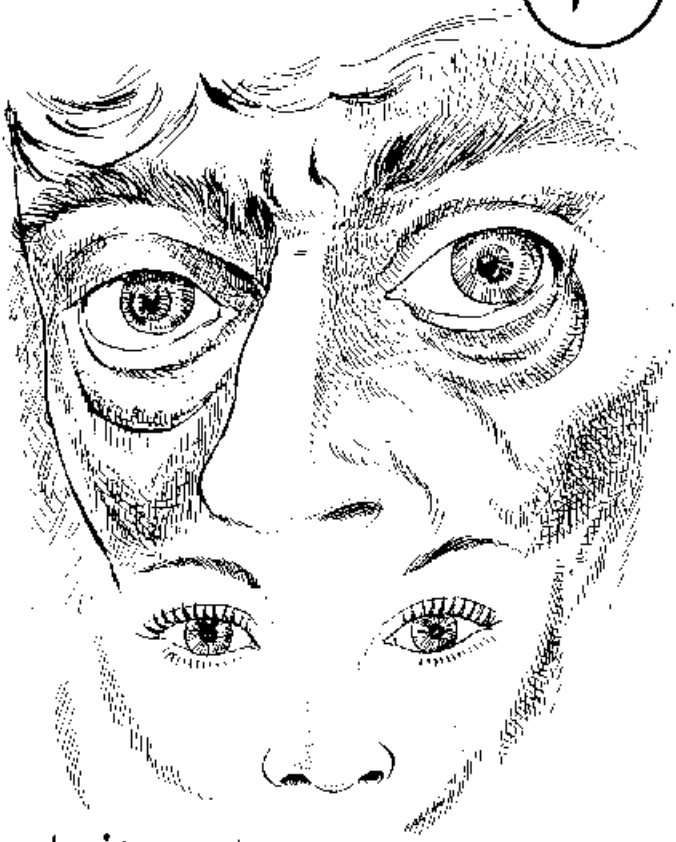

سرطان مانويل

سرطان مانويل

اصطفاق الباب الذي أوصد وراءه دوّى في كلّ حنايا صدره. ووقف في مثل ثقل صخرةٍ صمّاء، في حين كان ضبابٌ رفيقٌ ينساب أمام عينيه. الأَشجار والجدران وكلّ الأشياء كانت تبدو نائيةً، بعيدةً عن متناول يديه وبصره. ثمّ استقرّ نظره على اللوحة الرخامية التي كُتِب عليها: "الدكتور س... جهاز هضميّ". ومن جديد ترجّع في رأسه صدى العبارة الحاسمة: "تشجّع، يا مانويل". ساعتئذٍ كان قد حدج الطبيب بنظرةٍ قاسيةٍ، وسأله، في لهجةٍ حاول أن يسبغ عليها هدوءًا: "أهو السرطان؟" فاعترى الشحوب النطاسيّ. وأردف مانويل:

– أَيعني أنّني سأرحل خلال أشهرٍ ثلاثة؟...

– لست أدري؛ بل ربّما في خلال ستّة أشهرٍ...

كانت العبارات قد تبودلت على نحوٍ آليٍّ، وكأنّها مجاملاتٌ تافهةٌ، أو علاقاتٌ سطحيّةٌ أو كأنّ الأمر لا يتعلّق به. كان قد نقد الطبيب أتعابه، وحدّد الموعد التالي، وجلسات المعالجة بالأشعّة، وأودع محفظته الوصفة الطبيّة بكلّ تأنٍّ؛ وها هوذا الآن في الخارج؛ لم ترتعش يده فوق قبضة الباب، ولكنّ صدى اصطفاقه يترجّع الآن في صدره.

وأخذ يتأمّل الأشجار الباسقة على الرصيف... كم هو مدهشٌ تعطّش الشجر إلى ضمّ المدى، وتوثُّبه الدائم نحو السماء التي لا تطال!.. وداهم سمعه منبّه سيارة تعدو بباقةٍ من الشبّان، وقد تناثرت ضحكاتهم الصاخبة، وخيّل إليه أنّه كان يسمع تلك الضحكات في أعماقه. كلّ شيءٍ كان يبدو غير واقعيٍّ، فارغًا، غريبًا.

ثمّ مرّ قطارٌ وهو يطلق صفيره الحادّ، وقد ازدانت نوافذه بالوجوه والشعر المتباين الألوان والأشكال. لطالما حلِم بذلك الجسم المعدنيّ الليّن، الذي لا ينفكّ يمضي، مفرّقًا الناس، تارةً، وجامعًا شملهم تارةً أُخرى؛ وكم قد بدت له القطارات السريعة، التي كان يرقب انطلاقها، كلّ يومٍ، صورة للزمن الذي يعدو.

"ثلاثة أشهرٍ... ربّما ستّةٌ". وما الفرق؟ سيكون ذلك غدًا.

وما عساه سيفعل بتلك الأيّام المعدودات، بتلك الهنيهات التي سيهادنه فيها الألم كي يحاول العيش أيضًا؟ حياته؟ يا لها من مسيرةٍ غريبةٍ! ولمَ هي سلكت هذا النهج دون سواه؟ لماذا أصبح مهندسًا، وسلخ الأيّام والليالي في تطوير أجهزةٍ منزليّةٍ، وفي بعث الحياة في الجماد؟

هناك، أيضًا، منزله الذي سكب بين جدرانه الكثير من أحلامه وذوقه. ولكن ما إن فرغ منه حتّى...

والداه كانا قد لقيا حتفهما وهما، بعدُ، في شرخ الشباب. ولم يدرك مانويل إلاّ بعد أن فقد والدته أنّه كان علّة وجودها، ومحور حياتها، وأنّه، قربها، كان هو قلب العالم. محبّتها له كانت تضايقه

أَحيانًا، ولا بدّ أنّها قد عانت من لامبالاته وبرودة موقفه منها، ومن تحفّظه في إبداء حبّه لها، ألمًا جمًّا.

هو، أيضًا، كان يلتمس الحبّ. ولكن غالبًا ما ظلّ حبّه عرضًا من غير مقابلٍ، على غرار حبّ أمّه له. ذات يومٍ، عندما بادرته زميلته بقولها: "إنّك رائعٌ، ورقيقٌ، ولكنّك تبدو أَبدًا بعيدًا عنّي..."، ران عبءٌ باهظٌ على صدره، إذ أدرك أنّ ذلك القلب الذي كان يخفق إلى جواره كان مشدودًا إليه ويتألّم، في حين لم تكن تشدّه، هو، إليه، ذرّةٌ من حبٍّ.

لمَ الحبّ المتبادل هو على هذا القدر من الندرة؟ ولمَ هو يتعرَّض لكلّ تلك المحن من نأيٍ، وجهلٍ، وفوارق؟ ذلك هو كان الداء الحقّ الذي نشب بحياة مانويل، وكان أَشدّ قسوةً من ذلك الحيوان الأخطبوطيّ الذي ينسج الموت في أَحشائه. ولكنّ داء القلب هذا قد غضّن منه المحيّا، ونشر في لمّته الشيب، أَمّا السرطان...

في المقهى سألته النادلة، وهي تمسح المنضدة، ومن غير أَن تنظر إليه: "ما الذي يأمر به السيّد؟" وإذ لم تتلقَّ ردًّا، رمقته بنظرةٍ فاحصةٍ، جاهدةً في اصطناع الابتسام، فقال، مرتبكًا: "قهوة". وغاضت البشاشة من وجه الفتاة حين أَحسّت بالعزلة السحيقة التي منها جاء ردّه.

ونادى مانويل كلب المقهى، الذي كان يجوس خلال المناضد، فهرع إِليه، وأَسلم رأسه طائعًا لليد الممدودة، ولا سيّما أَنّ مانويل كان حاذقًا في تعامله مع البهائم. والكلب كان يسلخ النهار كلّه متنقّلاً من

زبونٍ إلى آخر، ينشد مداعبةً رفيقةً، أو كسرة خبزٍ، على نحو ما ينشد الكثير من البشر.

رشف مانويل رشفة قهوة من أَطراف شفتَيْه، فألفاها مُرّةً، مقزّزةً. كلّ ما كان يصبو إليه هو أَن يتنشَّق ملء صدره، وأَن يستشعر في أَنفه لسعة نسيم الصباح النديّ. "ثلاثة أَشهرٍ... ربّما ستّةٌ". مرّةً أُخرى، بدت له المناضد والكراسي والمرايا، بل حتّى النسيم النديّ، بعيدةً، قصيَّةً، وتراقص أمامه ضبابٌ ورديٌّ.

ورفع الكلب رأسه، معربًا عن شكواه لتوقّف اليد عن المداعبة. وانزلقت دمعةٌ حارقةٌ عند حافّة جفن مانويل، وعادت يده تداعب رأس الكلب في حنانٍ، وعندما انقشع الضباب عن نظره، رأى عيني الكلب المتوسّلتين الوديعتين وذيله يبصبص فرحًا.

سار مانويل طويلاً على التلال المطلّة على المدينة، وخيّل إليه أَنّ صباه، والمدرسة، والهنات الصغيرة التي ملأت حياة المنزل، ووجوه ذويه، وصوت جدّته، والفتيات اللواتي سحرنَ شبابه، والمعمل والحرب، وحياته كلّها، تنهار فوق رأسه. وماذا سيحلّ بمجموعة الصُّوَر الثاوية، هناك، في إحدى زوايا البيت، والتي تضمّ بين دفّتيها، تاريخ أسرةٍ بكاملها، منذ الجدود؟

منذ يقظة مراهقته ماانفكّ ينشد الحبّ، أو بالأحرى يسعى وراء التبادل، وراء شعورٍ ممتعٍ بأنّه يُحِبّ ويُحَبّ. عدّة وجوهٍ كان من شأن كلٍّ منها أَن يصبح هو الوجه الوحيد الذي تَنعقد حوله كلّ دنياه

وتُختزَل. ولكن، في كلّ مرّةٍ، وعلى نحو ما يجري اليوم، رأى الناس والأشياء تمضي في هروبٍ لا لحاق به. وهل يمكن نسيان تلك الأحلام التي تملأ الكيان، فترةً من العمر، وانتهاج مسالك اللامبالاة إزاءها؟ إنّ مانويل لم يقوَ، قطّ، على إخماد ما نشب في صدره، يومًا، من مشاغل الحبّ، إخمادًا تامًا.

ربّما كان عليه أَن يحبّ، ولو لم يُصدِ لحبّه حبٌّ آخر، وأن يشرع يديه بسخاءٍ، وأَن يساعد حبّ الآخرين، وأَن يبذر على غير أملٍ في حصادٍ. وقد تراءت له، أَحيانًا، عظمة تقدمة الحبّ هذه، وتذوّق طعم الفرح الحادّ الذي يوفّره عطاءٌ لا يدري به أَحدٌ، وخَبَرَ كم يستطيع خيال محبٍّ أَن يشعّ حواليه نورًا. كانت آلاف آلام الجماهير وضروب معاناتها تضجّ في حنايا نفسه، ولكنّه لم يجد قدرًا كافيًا من الشجاعة ليعيش، كلّ يومٍ، ومن غير هوادةٍ، تلك الآلام والمعاناة. فالنفوس الكبيرة، ليست قَدَر الناس أَجمعين.

ووجد مانويل نفسه يذرع الأرصفة ميمّمًا شطر منزل تيريز. فبين الوجوه الماثلة مثل، صوًى في درب حياته، كان وجه تيريز هو الأَخير والأغلى. ومن بعد "تيريز"، سكنت رياح الحبّ في قلبه.

اثنتا عشرة سنةً قد انصرمت. بيد أَنّ لقاءه بها ما زال أكثر قربًا وصدقًا من جميع الأيّام الغبراء التي انقضت منذئذٍ. لم يُطربْه، يومًا، صوتٌ، كما أَطربه صوت تيريز. كم تَمَنَّى لو كان قد سجّله في

أسطوانةٍ! فقد كان له بمثابة نشيد الدنيا السرّيّ... وقدّها المتدفّق حياةً، وعيناها اللتان فيهما كان يطمئنّ، ومنهما يستمدّ كلّ قوّةٍ...

خيّل إليه أنّه لو أخذت تيريز رأسه بين يديها، لتبدّد كلّ سقمه. ولكنّه حلمٌ مجنونٌ. "ثلاثة أشهرٍ... ربّما ستّةٌ".

كان ذلك لاثنتي عشرة سنةً خلت. وكان مانويل وتيريز قد قطعا معًا شوطًا بعيدًا، بحيث بات هو يعيش من أجلها وحدها. لقد أفضى إليها بكلّ أسراره، وأطلعها على كلّ مكنونات حياته، فغدت تعرفه أكثر ممّا يعرف هو نفسه. ثمّ كان الاستنفار، والحرب، والغياب الطويل، والأسر، واعتبر الأسير مفقودًا... ويوم عاد، أسرّ له صديقٌ، في صوتٍ خافتٍ، وهو، بعدُ، في المحطَّة، أنّ تيريز قد تزوّجت. يومها، تضرّج الضباب، أمام عينيه، بالنجيع.

كان قد لمحها، أحيانًا، من بعيدٍ، برفقة أطفالها، وكان، إذ ذاك، سرطانٌ من نوعٍ آخر، ينهش صدره، ويدفعه إلى الفرار.

علامَ، إذن، في ذلك المساء، أو في ذلك الصباح – لم يعد قادرًا على التمييز – كانت ساقاه تقودانه نحو منزل تيريز؟ وما عساه يفضي إليها به، وهو يراها شاحبةً، واجمةً، أمامه؟ وهل لها أن تعلم ما الذي دفعه إلى رؤيتها، وإلى أن يصرّح لها، دون سواها: "إنّني على شفا الموت، يا تيريز؟" أولا يكون بذلك قد قذف سرطانه في قلبها؟

أمام المنزل، كان الصغيران منهمكين فوق ركام رملٍ، وكان القصر الذي يجهدان في إشادته لا ينفكّ ينهار، دفعةً واحدةً. وتأمّل مانويل، لحظةً، القصر المستحيل، وبخطواتٍ ثقيلةٍ، عاد القهقرى شطر قلب المدينة، وفي قلبه عاصفةٌ تزمجر.

" ثلاثة أَشهرٍ... ربّما ستّةٌ"، أَهي كافيةٌ لتغيير حياةٍ، ولخلق إنسانٍ جديدٍ، في حين يتوثّب التمرّد في جسدك، وطعم الدمار يسري بين شدقيك وتستبدّ بك رغبةٌ في إِعلان موتك على رؤوس الملأ؟

ضمّ مانويل بذراعيه جذع شجرة الدردار الخشن، في حديقة داره، وأخذ يداعبه. واجتاحته رغبةٌ في الصياح أمام نتوءات أحجار منزله، وفي صدم رأسه بها، في حين كان الليل يهبط.

في تلك الليلة لم يوصد مانويل باب منزله. وفي سريره، عند الصباح، في أعقاب صراعٍ طويلٍ، جهد كي يبتسم في الظلام، بسمةً منتصرةً محطّمةً.

"ثلاثة أَشهرٍ... ربّما ستّةٌ"، لولادة إنسانٍ جديدٍ، أو للاستيقاظ في عالمٍ آخر لا عهدَ لأهله بتبذير الحبّ.

١١

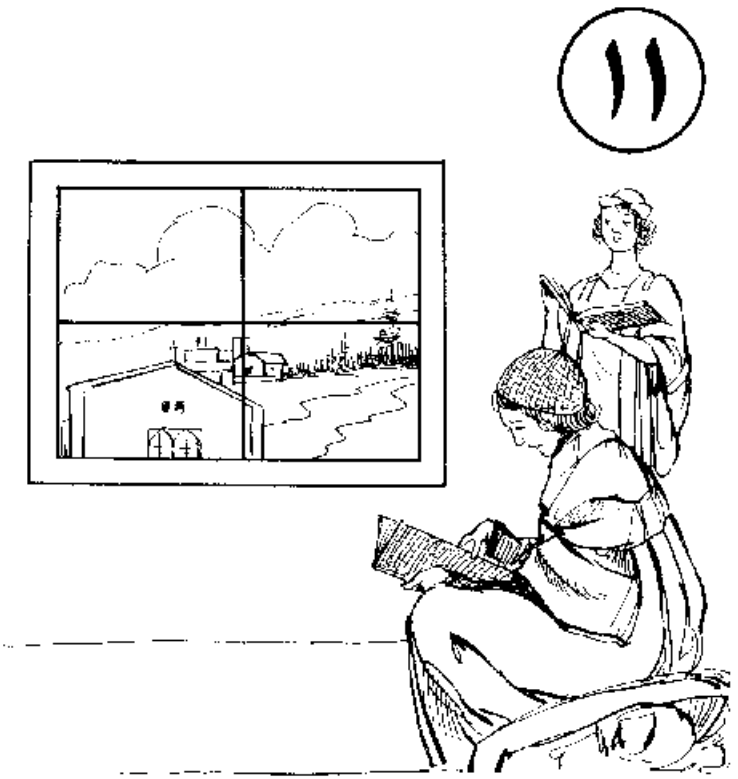

الآنسة سُعَاد

الآنسة سعاد

في تلك الليلة، كانت نار الموقد تتراقص جذلى، وكأنّها تسخر من أولى ليالي الشتاء وتتحدّاها. ودنت الآنسة سعاد من الموقد وهي تتمتم، وكأنّها تخاطب النار قائلةً: "إنّ هذا المساء لباردٌ". ثمّ جلست على المصطبة إلى يمين المدخنة، وتشبَّثت بالحزام المثبت بالجدار، إلى جانبي الموقد، والكفيل بحمايتها من الارتماء في النار، عندما يُثقل النعاس جفونَها.

كانت الآنسة سعاد قد أَنفَقَت عمرها كلّه في التدريس، وقد أُوكل إليها، منذ البدء، صفّ الحضانة. ومنذ يومها الأوّل في المهنة، أَصبحت هي ملكة عالم الأَطفال. كان الصغار يتعلّمون الكتابة والقراءة، إِكرامًا لها، ويُحكمون ربط أَشرطة أحذيتهم، تحت نظرها المراقب، كي يظفروا ببسمة إِعجابٍ وكلمة تشجيعٍ، ويتكرّر الأمر على هذا النحو، كلّ يومٍ.

وعندما كان الجرس يقرع، إِيذانًا باستراحة الظهيرة، كان الأَطفال يحيقون بها، ويتدافعون للتقرّب منها والإمساك بيدها، أو بطرف ثوبها، ثمّ يعودون وينتظرونها عند مدخل المدرسة، في الساعة الثانية، لمواكبتها في العودة إلى الصفّ، في مثل تظاهرةٍ دافقةٍ

بالحماس الجماعيّ. وكان بإمكانها الحصول على أيّ شيءٍ، عندما كانت ترفع إصبعها من علوّ منبرها العتيق النخر، وتضيء بابتسامتها الصفَّ كلّه وقلوب الأطفال أجمعين.

وعندما كان أحد الأطفال يلمحها في الشارع، بعد ظهر أيّام الخميس، أو أيّام الأحد، كان يهرع لتحيّتها لِيَقطُف بسمتها المنعشة.

وكان اليوم الحزين الرهيب، من كلّ سنةٍ، هو الأوّل من شهر تشرين الأوّل، حيث يتعيّن على تلاميذها القدامى الانتقال إلى الصفّ التحضيري. ذلك اليوم كان يعني لهم فقدانهم للآنسة سعاد التي سيحظى بها قادمون جُدُدٌ. وكان الكثيرون منهم، حالما يقرع جرس الاستراحة، يفلتون من صفوفهم الجديدة ويتراكضون نحوها. أمّا هي فكانت تشجّعهم وتأخذ بأيديهم لتعيدهم إلى مدرّسهم الجديد قائلةً: "عليكم أَن تصبحوا كبارًا يا أحبّائي". ثمّ تقبّلهم وتلتفت لتمسح عن مآقيها عبرةً لم تقوَ على حبسها.

مسكينةٌ الآنسة سعاد! فمع تقدُّم السنّ، كانت الابتسامة قد انحفرت على محيّاها في تغضّنٍ طويلٍ، عند طرفي الشفتين. كانت تبتسم دائمًا، حتّى في الحزن والشفقة والاكتئاب، فالبسمة قَدَرُها وطبعها. إلاّ أَنّ ما يغشى نور وجهها من غيومٍ هو الذي كان يفصح عمّا يعتلج في حنايا صدرها.

كانت الشيخوخة قد غضَّنت كلّ وجهها وملامحها، بحيث باتت أَشبه بتفّاحةٍ ضامرةٍ، ولم يبقَ حوالي فمها وعيونها سوى تعابير فرحٍ متصاعدٍ من أَعماقها.

لم تتزوّج الآنسة سعاد، ولم يكن ذلك لافتقارها إلى محبّين. فكم شغلت خيال شبابٍ، وكم ملأت صورتها من أحلامٍ! ولكنّها ربّما كانت "صعبةً"، شديدة العريكة، ولا سيّما أنّها وهبت كلّ حبّها، وكلّ قلبها، للصغار، لجميع الصغار، بحيث لم تعد تؤنس، طوال الأيّام والأسابيع، أيّ شعورٍ بفراغٍ. وكانت أحيانًا، تقول ضاحكةً: "جميع الأولاد هم أولادي".

في المساء، بعد فراغها من المدرسة، كانت تعمل، أيضًا، من أجل الأطفال، فتحضّر تمارين الغد، وهي تتصوّر وجه كلّ واحدٍ منهم، وتتذكّر حركاته وألفاظه... وتسارع، في الغداة، إلى المدرسة، مترقّبةً، بشوقٍ، وصول المراييل البيض.

وبعد ظهر أيّام الخميس وأيّام الأحد، كانت تعود المرضى، وتتفقّد من تخلّف عن الحضور إلى المدرسة. وحيثما حلّت، كان الأطفال وذووهم يحتفلون بقدومها، ويودّون إطلاعها على كلّ شيءٍ، ويشاركونها أفراحهم وشجونهم، فكانت محيطةً بكلّ أسرار القرية وخفاياها. وفي أثناء الاستراحة، كان الأطفال يتبارون في التقرّب منها، كي يسردوا على مسامعها، ومن غير أن يُسألوا، جميع وقائع حياتهم وحياة أسرهم، فكانت على علمٍ بالبقرة التي وضعت، وبالمحراث الجديد الذي اشتُري، وبكلّ خلافٍ بين الجيران.

وحلّ اليوم المشؤوم، اليوم الأخير في مهنة الآنسة سعاد. كان لا بدّ لها، أخيرًا، من التقاعد. كان صدرها منقبضًا وقلبها مهصورًا ينزف... يومذاك تدفّقت كلّ نفسها من خلال عينيها، وهي ترقب

الصغار يقبلون إلى المدرسة، ويدخلون قاعة الدرس. وبفعل عادَةٍ ترسّخت، سنواتٍ طويلةً، ظلّت البسمة تشيع على محيّاها. ولكن، عندما آن، في المساء، موعد مساعدة الأطفال على ارتداء ملابسهم، تأهّبًا للعودة، لم تعد قادرةً على حبس دموعها. ولم يدرك الصغار لدموعها سببًا، إلاّ أنّهم تدافعوا لتقبيلها والتعبير لها عن حبّهم وتعلّقهم بها، ممّا أعاد البسمة إلى وجهها المغضّن. وفي ذلك المساء، قفل جميع الأطفال إلى منازلهم متأخّرين.

وانقضى الصيف، واستأنفت المراييل البيض طريق المدرسة، فيما الآنسة سعاد مختبئةٌ خلف نافذتها ترقب أحبّاءها الصغار، أولئك الذين عرفتهم، وهؤلاء الذين لن يتسنّى لها تعرّفهم يومًا... وعندما أشارت عقارب الساعة إلى التاسعة وعشر دقائق، وهي ما زالت في مكانها، تأكّد لها أنّ عهدها قد انصرم من غير رجعةٍ، وأنّ الشيخوخة حلّت في غير رحمةٍ، وراحت تمسح دموعها، في صمتٍ.

كانت الآنسة سعاد جالسةً قرب الموقد، حين رأت طفلاً يرقص من خلال اللهب، مومئًا لها بيديه الصغيرتين. تارةً كان يختفي، ولا سيّما عندما كانت تُعمل في النار محراكها، فارًّا إلى أعماق الموقد البنفسجيّة، ثمّ لا يلبث أن يعود متوثّبًا متدفّقًا بهجةً، يعبث ويرقص بين ألسنة اللهيب، وتارةً أُخرى كان يطول اختفاؤه، حتّى لتخشى أن يكون قد غادرها بلا عودةٍ، وإذ به يباغتها برجوعه، مبتسمًا، وقد بات أكبر، حاملاً في يده ما يشبه رغيفًا مستديرًا. وحينئذٍ تراءت لها زرافاتٌ من الأطفال يتراكضون صوبها، وبصيحاتهم الجذلى يدعونها

إلى مشاركتهم رقصتهم الدائريّة. ولكنّها كانت عاجزةً عن اللحاق بهم، وكأنّ حاجزًا يحول دون ذلك. ولم يكن بوسعها سوى نفحهم ابتسامة تشجيعٍ. وها إنّ عددهم يتفاقم. لقد باتوا حشدًا كبيرًا. إنّها لم ترَ، قطّ، في حياتها مثل هذا العدد من الرؤوس، إلاّ أنّهم كانوا يشبهون أولئك الأطفال الذين كانوا لها، يومًا، تلاميذ. كم كانت سعادتها عارمةً، في ذلك البهو المتمادي في الطول إلى ما لا نهايةٍ، حتّى لتكاد لا تلمح موجات الأطفال القابعين هناك، في طرفه النائي، وهي تنعم النظر كي تبصر وجوههم الصغيرة الطافحة بشرًا! لقد كانوا، جميعهم، يغنّون، أو يدمدمون الأناشيد، وهي بهم مأخوذةٌ على موجةٍ من سحرٍ.

أيّ درسٍ كان بوسعها إلقاؤه على مثل هذا العدد الحاشد، وأيّ تمرينٍ تدرّبهم عليه؟ لقد كانوا من الكثرة بحيث يلزمهم العشرات من المعلّمات! ومن ثمّ، فلا أَفضل من المضيّ في الغناء. وتحت قناطر البهو المضيئة، كانت الأصوات الصغيرة تمتزج، رقيقةً، دافئةً. وكانت الآنسة سعاد تغنّي، هي أَيضًا، ولكن في سرّها، لئلاّ تلقي نغمةً ثقيلةً على تلك المعزوفة البَلُّوريَّة الشفّافة. وحلّقت روحها في جوّ العيد ذلك، وطالت نشوتها، إلى أَن أخذت أَضواء البهو تخفت متحوّلةً إلى نصف عتمةٍ، موحيةٍ بالنجوى الحميمة. وأَقلع الصغار عن الغناء، فساد صمتٌ عميقٌ.

وفيما كانت الآنسة سعاد تتساءل عن معنى كلّ ذلك، تراءت لها فتاةٌ فقيرة المظهر، تدنو منها في رشاقةٍ وفرحٍ، ممسكةً بيدها صبيًّا

تتفجّر ألحاظه حيويَّةً. ربّما كان واحدًا من أولئك المتطفّلين الذين غالبًا ما يُشاهدون عند أبواب المدارس، يوم افتتاحها، والذين يسبّبون العنت والإحراج. ولكنّ الفتاة اعترضت في حياءٍ قائلةً: "إنّه لا يعرف القراءة، إذ لم نستطع إرساله إلى المدرسة".

كان الأطفال قد استعادوا إنشادهم، غير أنّ الآنسة سعاد لم تكن تراهم، ربّما لأنّ الليل قد ادلهَمّ وكثف ظلامه. وكانت، بين الفينة والفينة، تسمع زفير النار، فتعروها رعدةٌ مباغتةٌ وينتابها خوفٌ موحشٌ. الفتاة أَيضًا كانت قد توارتْ، ولم يبقَ أمامها سوى الصبيّ، الطالب الجديد، شاخصًا إليها بأبصاره، ثمّ أَخذ يروي لها قصّته: كان مسكينًا، فقيرًا. رأى النور في إسطبلٍ... وعقدت الآنسة سعاد العزم على العناية به.

كانت أناشيد الأطفال تترامى إليها من بعيدٍ، فتتساءل هل هي في حضور ذلك الطالب الجديد فحسب، أم أنّ أطفال العالم أجمع كانوا يتوافدون إليها وتذوب وجوههم، جميعًا، في وجهه وحده. لا بل كان يُخيَّل إليها أَنّ وجهها نفسه كان يتلاشى ويذوب في ذلك الوجه النديّ الذي يحاكي وجه وليدٍ.

كان الليل قد أمسى حالكًا، سنيًّا، وصدر الآنسة سعاد ينوء بفرحٍ داخليٍّ يتصاعد ظافرًا لا يُقاوَم.

وفي صباح الغد، وجد الجيران الآنسة سعاد، وقد فارقت الحياة، منحنيةً على حزام الموقد الجلديّ، فوق نارٍ هامدةٍ، وقد كست وجهَها الحاني ابتسامةٌ أبديّةٌ.

١٢

ليلة الأرغن الأخيرة

ليلة الأرغن الأخيرة

ما الذي كان يحدث، وقد تصرّم من الليل معظمه، في الكاتدرائيّة المنتصبة في شموخٍ ومهابةٍ، فوق مصابيح الشارع التي تفيض على بعض حجار جدرانها ألواناً ذهبيّة، تميّزها في كثافة العتمة؟ لقد انبعث فجأةً من صحنها وقبابها ومعابدها وزجاج نوافذها المزخرف، مهرجانٌ من النغم، أَخَّاذ السحر، وكأَنّ حياةً بكاملها قد سالت عبر إيقاع الموسيقى.

وتبادل رجال الشرطة نظرات التساؤل والاستغراب والحيرة. أيتعيّن إخطار الأسقف، أم من الأفضل إرجاء الأمر حتّى الصباح؟ ربّما كان كاهنٌ زائرٌ يحاول التسرية عن أرقه. ولكن أيُعقل أَن يوقظ، في تلك الساعة من الليل، الأرغن الكبير، الغارق في سباته وصمته منذ سنوات؟ إنّ سدول الليل غالبًا ما تنطوي على أسرارٍ مستغلقةٍ، يُفرغ عليها الظلامُ مزيدًا من غرابةٍ وكتمانٍ.

ولمّا همّ الأسقف بفتح أَبواب الكاتدرائيّة، في الساعة السادسة، كانت هناك نغمةٌ وحيدةٌ، لجوجٌ، تتوالى بلا انقطاعٍ فتملأ أرجاء، المعبد بأصداء إيقاعها الرتيب. وكان النهار يستعيد، في رفقٍ وصمتٍ، بسط سلطانه على الصحن الفسيح ومجد القباب، فيما النغمَة العريضة تتصاعد، وكأنّها روح الحجر تختلج تحت مداعبة النور الطالع.

وجمّدت الدهشة الأسقف عند باب الكاتدرائيّة، فأرهف السمع، وطاف ببصره متحرّيًا. لم يكن للريبة مجالٌ، فقد كانت النغمة تنبعث من الأرغن الكبير، مع أنّ المصباح الكهربائي المثبت فوقه غير مضاءٍ. ثمّ لماذا هي نغمةٌ وحيدةٌ رتيبةٌ، لا تتوقّف ولا تتبدّل؟

ما كان الأسقف قطّ قد سمع شدو الأرغن الكبير في تلك الكاتدرائيّة. فعندما وصل إلى المدينة، لسنواتٍ أربعٍ خلت، كان الشلل قد نال من العازف العجوز بحيث كان لا بدّ من حمله ورفعه، بل جرّه على السلّم الحلزوني، حتّى الوصول به إلى موقع الأرغن. وحيال ذلك، اضطرّ الأسقف إلى الاستغناء عن خدماته، وتمنّى له تقاعدًا هادئًا. آنذاك، مسخ وجهَ العازف العجوز تشنّجٌ وجيعٌ، في محاولةٍ لتجنّب البكاء، ومنذئذٍ، أَخلد الأرغن الكبير إلى صمتٍ مطبقٍ. أمّا العازف، رزق الله، فكان، عندما يستبدّ به الحنين، يتسحّب في ساعات ما بعد الظهر إلى الكنيسة، ليرمق من بعيد الآلة الحبيبة التي امتزج بها كيانه، في مثل زواجٍ حميمٍ، سحابة نصف قرنٍ، ويرفع أَبصاره المتعبة إلى حيث كانت تقبع، في حنيّةٍ عاليةٍ، بين جدارين اتّحدا في مثل يدين تصلّيان.

كانت النغمة اليتيمة لا تني تردّد صداها، فتضفي على الكاتدرائيّة، في ذلك الصباح النديّ، جوًّا من السرّ. وامتزجت الريبة والقلق في قلب الأسقف بالحيرة وشيءٍ من الخوف. فما عسى أَن يكون مصدر ذلك الإيقاع العنيد الرتيب؟ أهو تماسّ أسلاكٍ كهربائيّةٍ، أم عبث أَحد الصبية؟

كان باب السلّم الحلزوني المؤدّي إلى الأرغن مفتوحًا، فولجه الأسقف، وفي إثره معاونه. أوّلَ الأمر، تلاشى صدى النغمة الملحاح في كثافة الجدار الحجري، ولكنّها سرعان ما عادت، وقد تجسّمت وتضخّم هديرها، مع اقترابهما من أعلى السلّم.

وأخيرًا عندما دفع الأسقف باب المعزف، لم يملك إمساك صرخةٍ اختنقت في حلقه: لقد كان رزق الله جالسًا إلى الأرغن، وقد ألقى رأسه على مرفقه المنثني، وقد تجمّدت سبّابته على ملامس الأرغن الذي لا تني تطير منه النغمة الصافية العنيدة، قبل أن تنتشر عبر صحن الكاتدرائيّة الفسيح.

كان من الواضح أنّ رزق الله قد فارق الحياة، فقد انسدل جفناه فوق وجهه الشمعيّ اللون، فيما فغرت الدهشة فمه المتجمّد، وقد شاعت منه نشوة إصغاءٍ مذهولٍ. ترى لمن كان يرسل تلك النغمة الملحاح؟

وتنفيذًا لأمر الأسقف، أخذ الكاهن بتؤدةٍ بين يديه معصم رزق الله الذي دبّ فيه الصقيع. وعندما رفع عن الأرغن يده المتغضّنة، أمسى الموت نهائيًّا. الموت؟ في مفهوم البشر فقط. فمن يدري من هم الأموات ومن هم الأحياء، حقًّا؟

وهبط على الكاتدرائيّة صمتٌ رهيبٌ. وبدت، فجأةً، جدرانها العملاقة وكأنّها جدران لحدٍ، وسرى في حجارها البرد واللامبالاة، في ضوء الصباح الخجول. إلاّ أنها، شيئًا فشيئًا، أخذت تتآلف مع السكينة المطمئنّة المنبعثة من وجه رزق الله الذي كان يعكس فرح الأرغن الراسخ المنيع.

بعض الشهود كانوا قد رأوا رزق الله، مساء أمس، إلى جوار الكاتدرائيّة كما وُجدت على درجات السلّم الحلزونيّ قبّعته ومنديله. لا بدّ أنّه كان قد تسلّل إلى الكاتدرائيّة، واختفى فيها قُبَيْل إغلاقها، وسلخ القسم الأكبر من الليل يتسحّب من درجةٍ إلى أُخرى، كي يبلغ الأرغن. ولكن، كيف أَبرقت مثل هذه الخاطرة في ذهن عجوزٍ مسالمٍ، هادئٍ، عاقلٍ؟ أَهو حنينٌ لا يقاوَم قد استبدّ به؟ لا ريب. ولكن ربّما كان هناك، أَيضًا، ما هو أَشدّ من الحنين. وعلى أيّة حالٍ، فتلك لم تكن هي الليلة الأولى التي يتسلّل فيها رزق الله إلى الكاتدرائيّة ليلاً، ويسهر مع الأرغن. غير أَنّ سرّه هذا لم يطّلع عليه سوى حجار الكاتدرائيّة الصمّ، وهي وحدها كفيلةٌ بالكتمان.

ليلة تسلّله الأولى كانت ليلة يومٍ ربيعيٍّ، وعلى وجه التحديد، ليلة خميس الآلام. مساء ذلك اليوم، كان قد أمسك، للمرّة الأولى، يد حبيبته ناديا على ضفّة الساقية. كانا، من قبلُ، غالبًا ما يلتقيان، فيتبادلان البسمات وبعض العبارات الخجلى. وكان لدى كلٍّ منهما الكثير من الأقوال المكبوتة، ولكنّ الوقت كان يمرّ، دائمًا، سريعًا. فمنذ القديم ينشب عداءٌ مستحكمٌ بين الحبّ والزمن.

كان رزق الله قد خَلَف والدَه في العزف على الأرغن، ومساء ذلك اليوم، وافت ناديا إلى الكنيسة للصلاة، وبادرها رزق الله، عند باب الكاتدرائيّة، وسط حشد المؤمنين، وهمس في أذنها: سيعزف الأرغن هذا المساء لله، ولكنّني سأوجّه إليك أَيضًا عبره، رسالةً، فأصغي جيّدًا.

كم كان رزق الله يتسلّق يومذاك السلّم الحجريّ برشـــاقة! منـــذ الدرجات الأولى التي كان يجتازها اثنتين اثنتين، كان سحر الأرغـــن يتسرّب إلى ساقيه وذراعيه ويجتاحه بكلّيته، جسمًا وروحًا.

كان رزق الله يرى في المرآة لجّة الجمهور المحتشد، وهنـــاك، في إحدى الزوايا، ناديا، بشعرها الفاحم المسترسل، الذي يبرز وجهها الأبيض الجميل. ولا بدّ أنّها كانت تصغي بكلّ جوارحها، فيجهد رزق الله في التعبير، عبر النغم، عمّا يختلج في صدرها، وعمّا يفعم نفـــسه من فرحٍ.

كان منعزلاً عن الجمهور، في معزفه الـــذي أضـــاءه مـــصباحٌ باهتٌ، وكأنّه في عالمٍ آخر سابحٍ في عباب الليل. وتـــدفّقت نغمـــات الأرغن كريحٍ منتشرةٍ على ذؤابات الغابة، وخفق قلب ناديا في عنفٍ كاد يحطّم ضلوعها، وتراقصت في خيالها صورة رزق الله يبتسم لها ويقبّلها، ويمضي بها إلى آفاقٍ بعيدةٍ، فيما طار النغم برزق الله فـــوق قباب كلِّ كاتدرائيّات العالم، ممتزجًا بأصدائها المدوّيـــة، وتـــسابيحها المتصاعدة إلى السماء. لقد ذاب مع الأوركسترا، وبحركات ذراعيـــه وساقيه واندفاع جسمه كلّه، توحّد مع الإيقاع الهادر الذي استولى على كلّ شيءٍ.

كانت ناديا تنتظره في فناء الكنيسة الخارجيّ، عندما هبط الـــسلّم الحجريّ، مسرعًا، وقادهما مشوارٌ مسحورٌ، غارقٌ في عذوبة المساء الربيعيّ، على ضفاف الساقية. ولمّا امتدّت يده المرتعشة إلى يد ناديا أطبقت هذه عليها في حنانٍ، وأدركا كلاهما، في غير حاجةٍ إلى كلامٍ،

أنّ مشوارهما ذاك كان الخطوة الأولى في مشوار حياتهما المشتركة الطويل.

تلك الليلةَ، طردت السعادةُ العارمة النومَ عن جفني رزق الله، فطفق يذرع الشوارع المقفرة، وكأنّه طائرٌ في الأثير، وفجأةً، وعلى غير شعورٍ، وجد نفسه يتسلّق السلّم الحجري المفضي إلى الأرغن. لم يشعل المصباح، فالعتمة كانت تحتضن سعادته بحنانٍ، ولا تنتزع منها شيئًا، وهدوء الكاتدرائيّة الخالية كان مسرحًا هنيئًا لأحلامه.

وتلمّس، خلال لحظاتٍ، الآلة الحبيبة، وهو يدندن ألحانًا أثيرةً، ثمّ استقام على مقعده وراح يطلق، ملء يديه، في ظلال الكنيسة، النور الذي غمر حنايا صدره، وقد استحوذ اندفاعٌ جَذِلٌ على كلّ حركات جسمه.

لم يكن في تلك الليلة رجال شرطةٍ يرابطون أمام الكنيسة، ولم تبلغ أسماعَ أحدٍ أصداءُ مهرجان النغم والفرح الذي قدّمه رزق الله لناديا، حتّى بزوغ الفجر. وفي الصباح النديّ كانت الكنيسة كطفلٍ غافٍ ترقد على صمتٍ مفعمٍ بالسعادة.

وإن كان لا بدّ من البوح بكلّ أسرار رزق الله، فلا مندوحة عن الإقرار بأنّ ليلتين أُخريين شهدتاه وحيدًا مع الأرغن، في الكنيسة الخاوية الغارقة في الظلام.

الليلة الأولى، كانت يوم اغتال الموت عمر ابنهما الغضّ. ومن يرضى بموت طفلٍ؟ كان طفلهما الوحيد جميلاً، يتدفّق بحيويّة سنواته

الأربع، حين ذهب الخُنَاق بأنفاسه وحطّمه. وعندما سكن المنزل، أخيرًا، بعد نوبات السعال المضنية المتواصلة، وبعد حمّى القلق والسهر والمعالجة وصيحات الألم، اندفع رزق الله إلى الخارج، فيما أحاقت النسوة والأقرباء بناديا، لقد ضاق ذرعًا بعبارات التعزية والنحيب، وبالناس جميعًا. كان في حاجةٍ إلى الصمت، إلى المطر يلسع وجهه، إلى بساطة الشارع وفقره، في الهواء الطلق، تحت قبّة السماء الفسيحة. في تلك الليلة، أيضًا، وجد نفسه مثقل الساقين يتسلّق في تؤدةٍ السلّم الحجريّ، وترتمي يداه المتشنّجتان على ملامس الأرغن. مسكينٌ جسد الإنسان الذي تعجنه النفس بيديها!

وفي تلك الليلة، هبّت من الأرغن عاصفةٌ: كان يئنّ، ثمّ يعلو صراخه، صراخ تمرّدٍ وحنقٍ، ثمّ يحاول اللجوء إلى الصلاة. وشيئًا فشيئًا، مع انسياب الليل، لم يعد رزق الله هو الذي يقود الأرغن، بل الأرغن كان المسيطر على اندفاع قلبه وجسمه. كان الأرغن هو الذي يعزف أحاسيس رزق الله ويُفرغ على ألمه، في تؤدةٍ وأناةٍ، وجهًا جديدًا، ومن أعماق حزنه يبعث برسالة شكرٍ إلى العالم والنجوم والغابات والحجار، وعمق الأشياء الإنسانيّ.

وفي الصباح استطاع رزق الله أن يسكب شيئًا من السكينة على قلب ناديا، ودُفِن الصغير في هدوءٍ. ومنذ ذلك اليوم لحظ جميع من تقيم آذانهم على مقربةٍ من نفوسهم، أنّ عزف رزق الله قد تغيّر، وأنّ ضربًا من الشجاعة العنيدة والسلام العميق قد نشأ بين الأرغن وبينه.

الليلة الثانية، أو هي بالحريّ الثالثة، كانت ليلة موت

ناديا، التي كان المرض قد أضناها وأوسعها هزالاً، ومعها رشف رزق الله من العذاب حتّى الثمالة. ومساء احتضارها، وبعد أن أصلحت وجهها الذي انبسطت فجأةً أساريره، على نحو ما كان يوم زفافها، وارتدت أجمل ثيابها، واستلقت على السرير بالغة الشحوب والضمور، جلس هو إلى جانبها يملّي ناظريه وكلّ كيانه منها، ويحاول تثبيت صورتها إلى الأبد في أعماقه. مسكينٌ نظر الإنسان الذي يحاول قهر الزمن!

وعندما غُصَّ المنزل بالجيران والأصدقاء، اندفع رزق الله إلى عتمة الشارع، يحمل معه وجهَ ناديا، ونارَ ألمٍ متأجّجةً تخنقه وتفنيه. وفي تلك الليلة أيضًا صعد السلّم الحجريّ متعثّرًا، مثقل الخطى. وجلس إلى مقعده محطَّمًا، وظلّ، فترةً، لا يجد السبيل إلى ملامس الأرغن، جامد اليدين، مائل الرأس، مغمض العينين. كان يصغي في ذهولٍ إلى صمت الأرغن، والصمت الذي يفوق أحيانًا بلاغة الموسيقى، يلفّ كيانه. ولم يخطر ببال أحدٍ أنّ رزق الله كان، آنذاك، وحيدًا مع ألمه وصمت الأرغن السحيق.

وبعد أن انتشى من الألم والصمت، أَخذت السكينة تتسرّب رويدًا رويدًا إلى نفسه، وسرحت أنظاره في القبّة الفسيحة، وامتدّت أصابعه إلى ملامس الأرغن، وتعالت النغمات صافيةً رنّانةً، أبعد من الحياة والموت، وقد امتزجت فيها أناشيد الطيور وأفراح الأطفال، ووجه ناديا، وجميع أنوار الحياة وظلالها، والأمل البشريّ الذي لا ينضب. لم يعد للكنيسة ولا للمدينة وجودٌ. صوتُ الأرغن وحده كان يسود،

عنيدًا، منتصرًا. لا، لن يقوى الموت، يومًا، على قتل الإنسان.

ثمّ كانت الليلة الأخيرة. كان وقر السنين وما جرّته من أسقامٍ، وتصلّب أعصابٍ، واضطراباتٍ قلبيّةٍ، وذلك الحدْس المبهم بدنوّ الأجل. أجل، كان رزق الله يؤنس أنّ الموت على خطواتٍ منه. ثمّ إنّه كان يوم خميس الآلام، وذكرى ذلك الخميس المقدّس الأوّل الذي حوّل حياته. وللمرّة الأخيرة، وجد نفسه عند أسفل السلّم الحجريّ. وعندما سمع المفاتيح الكبيرة تصرّ في قفل بوّابة الكاتدرائيّة التي بات فيها وحيدًا، ارتقى الدرجة الأولى بمشقّةٍ، واضطرّ إلى الجلوس على الثانية، ثمّ على الثالثة، ثمّ، بيديه ورجليه ودموعه، وبفضل درب صليبٍ مضنٍ اشترك فيه كلّ كيانه، أفلح، بعد لأيٍ، في بلوغ معزفه. كم كانت المسافة شاسعةً بين هذا الصعود اليائس، والتسلّق الرشيق، أيّام الشباب، حيث، منذ الخطوة الأولى، كانت روح الأرغن تستولي على كلّ كيانه! غير أنّه، في تلك الليلة أيضًا، كان يؤنس تفجّر ينابيع فرحٍ غامرٍ، ورغبةً في العزف لا تقاوم، وكأنّ سحرًا قد حطّم جميع السدود بين الشباب والشيخوخة.

الله وحده يعلم، وربّما رجال الشرطة، أيضاً، قد أحاطوا بالأمر بعض علمٍ، أنّ يقظة شبابٍ قد تسرّبت إلى ذراعي رزق الله وساقيه، في الساعات الأخيرة من تلك الليلة، وتحوّلت، في أرجاء الكنيسة الغارقة في العتمة والسكون، مهرجان أنغامٍ صاخبةٍ، ودفقات حماسٍ مدوٍّ، ودموع فرحٍ شفّافةٍ، وصيحات ألمٍ دفينٍ قلبته الأيّام سكوناً راسخاً، وصرخة تطلّعٍ ورجاءٍ، تشيع في حلكات الظلام شلاّلات نورٍ

أبديٍّ. كان رزق الله يطوف رشيقًا بين الأرض والسماء، راسمًا بالنغم صورة حياته وإيمَانه ورجائه. وظلّت نغماتــه تخفــق بــين القبــاب والجدران وتحلّق في الأثير، إلى أن مال جذعه برفقٍ، وانساب رأسه على مرفقه، فيما كانت سبّابته تطلق نغمة الوداع الأخير.

١٣

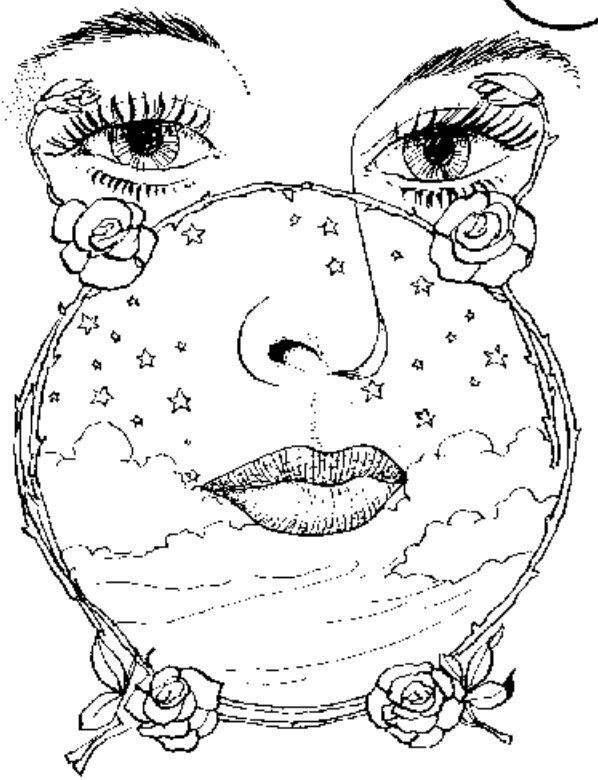

درب البلاد الغريبة

درب البلاد الغريبة

حَدَثَ ذلك، على مقربةٍ من أحد تلك الشواطئ، حيث البدء والنهاية في مواجهةٍ دائمةٍ، وحيث اليابسة والبحر يتقابلان، وأحيانًا يصطرعان.

كانت هناك فتاةٌ، اسمها "ماريّا"، تدنو من الشباب بخطًى أثقلها السأم؛ فحياة القرية من الرتابة بحيثُ تسحق الصدر. كانت الأيّام تتوالى، على وتيرةٍ لا تتغيّر: عملٌ، فطعامٌ فنومٌ، والأعياد والمناسبات البهجة من الندرة بحيث بدا العيش أغبر اللون، ترابيّ الطعْم. أسابيع كانت تتصرّم لا تُسمع خلالها رنّة ضحكةٍ، والوجوه ترتدي شيئًا فشيئًا، ملامح الصخور الصمّ.

في إِحدى ليالي السَّمَر الشتائيّة، كانت "ماريّا" قد سمعت من إحدى العجائز حكايةً عن بلادٍ غريبةٍ، حيث الحياة تضجّ بضحكٍ مدوٍّ لا ينقطع، وأنّ دربًا سرّيًّا يُشرَع صوب تلك البلاد، في بعض الأماسي التي ينيرها البدر بأشعّته الذهبيّة. وكانت الحكاية تُضيف أنَّ أحدًا لم يَعُدْ، قطّ، من تلك البلاد، فالدرب إليها يُضاء، مرّةً واحدةً، كلّ مئة سنةٍ، والطوبى لمن يكون، آنذاك، متأهّباً، على رمال الشاطئ.

ولطالما داعب أَحلامَ "ماريّا" دربُ البلاد الغريبة تلك، لا بل كان يُخيَّل إليها، في بعض الليالي القمراء، وهي راقدةٌ على فراشها، أنَّ ضوء القمر يلوّح لها بأشعّته ويناديها. إلاّ أنّها كانت تعتصم بالتعقّل، إلى أن طفح بها الكَيل، أَخيرًا، في إحدى ليالي أواخر الربيع، ولم تَعُد تطيق على الصبر احتمالاً، واستقرّ لديها اليقين أَنّ الدرب السرّيّ سيُضاء ويُشرع في تلك الليلة الفريدة، دون ليالي القرن كلّه. وأَرهفت السَّمع، حتّى ثبُت لديها، من تنفّس ذويها، أنَّ النوم قد سيطر عليهم جميعًا، فانسلّت إلى الخارج، خفيفةً كالنسيم.

وخُيِّل إليها أنّ الليل قد انقلب نهارًا، فقد غمر القمر الدنيا بلونٍ حليبيٍّ متألّقٍ وملأ السماء بابتسامةٍ لامتناهيةٍ من عينيه الواسعتين. وكان الدرب إلى البحر واضح المعالم، يرقص فيه النور؛ وانحدرت عبره الفتاة، رشيقةً، غير متردّدة، تتوثّب على صدى نغماتٍ نائيةٍ تأتيها من البحر الذي كان يرحّب بقدومها.

في أيَّة ساعةٍ استسلمت للسّبات، وعلى أَيّ سريرٍ من الأمواج؟ لم تَعُد تتذكّر ولكنّها عندما استيقظت، كانت السماء ساطعةً في الجوزاء، والبحر يلهث تحت السماء اللازورديّة، والدرب المؤدّي من الشاطئ إلى القرية، بعيدًا، بعيدًا، لا تَلحق به عينٌ، ولكن أين الدرب الآخر، الدرب المُفضي إلى البلاد الغريبة الضاحكة؟

كان القلق قد أَخذ ينشب في صدر "ماريّا" حين لمحت سمكةً شاخصةً إليها، فسألتها، في لهفة:

– عفوكِ، أختي السمكة، هل لكِ أن تُرشديني إلى درب العالم الغريب؟

– لم أسمع قطّ بمثل هذا العالم. هل أنتِ غريبةٌ عن هذه البلاد؟

– لا، بل أنا من قاطني اليابسة، وقد سلكت ليلة أمس الدرب الذي يُشرع مرّةً كلّ قرنٍ.

– آه! لم. يكن لي بذلك علمٌ. ولكن لماذا غادرتِ الأرض؟

– كدت أموت من السأم. لقد كانت الحياة كئيبةً. هل تعرفين الأرض، أنت؟

وردّت السمكة، في عنفٍ وانفعالٍ:

– معاذ الله. لن يخامرني، يومًا، خاطرٌ في ارتياد أَرضكم. فعلى حدّ ما تعلّمت في المدرسة، الماء عندكم يأسن في الأنابيب، وبطون السمك، في السواقي، تحفى من جرّاء ارتطامها الدائم بالحصى.

وأردفتِ السمكة: "أتمنّى لكِ التوفيق" وقفزت في الهواء كي تعود فتغطس في الأعماق. وكان الماء من الكثافة حول رأس "ماريّا" بحيث لم تلمح دمعةً ترقرقت من عين السمكة.

وانتزع "ماريّا" من أَحلامها الحوارُ التالي:

– أجل، يا عزيزتي، أؤكّد لكِ أَنَّ الشبّان باتوا يرفضون التشبّث بأماكنهم.

كانت المتحدّثة صَدَفةً مُسنّةً، علت أَنفها نظّاراتٌ، تنحدر مع الموجة الهابطة، وكانت تكلّم رفيقةً لها، أَصغر منها سنًّا، وقد ردّت عليها هذه قائلةً:

– هذا صحيحٌ. مع أنّه يتحتّم الوقوف على أرضٍ صلبةٍ، في هذه الحياة. ولكن لا يليق التشبّث في عنادٍ مفرطٍ، شأن الكثيرين من

إخواننا الذين يأبون مسايرة الجزْر. إنّهم يدّعون التفوّق، ويتبجّحون بقولهم: "أنا، لن أتغيّر أبدًا"، ولا يأبهون لمداعبة الأمواج، مقيمين على كبريائهم. وعندما نعود إلى هناك، على كتف أمواج المدّ الحانية، نراهم يمضون إلى سلال الصيّادين.

واعترضت الصدَفة ذات النظّارات:

– هذا مؤكّدٌ، إلا أنّ الذين ينتهزون سانحةَ كلّ موجة، ويقلعون عن التشبّث، فيقفزون بعيدًا على الرمال، هم أسرع وصولاً إلى سلال الصيّادين. ولا أمل لهم في موجةٍ تردّهم. صدّقيني أنّ الغُلوّ في التشبّث أوفر سلامةً من الإفراط في الاسترخاء.

ولمحت الصَدَفة الشابّة، الفتاةَ، فسألتها: "إلى أَين أَنتِ ماضية يا آنسة؟" وعَرَت "ماريّا" حمرة الخجل، فصاحت بها الصَدَفة المُسنّة: "حذارِ، أنتِ أيضًا، من الانتهاء إلى إحدى السلال!"

وفيما كانت الصَدَفة تنقلب على ذاتها، هتفت رفيقتها الشابّة للفتاة: "وداعًا"، ثمّ لبّتا، كلتاهما، نداء الموج، والتحقتا بأترابهما، شَطْر شواطئ العالم، ليهمسنَ أناشيد صامتةً، في آذان الصخور الغافية.

وانتهت "ماريّا" إلى إحدى تلك الدوائر الضبابيّة، السابحة فوق اللُجج، حيث تقوم مصانع الغيوم. وأَنساها النشاط الفوّار الذي تضجّ به تلك المصانع، الخواطرَ التي أثارتها فيها كلمات السمكة والصَدَفتين. كانت تتصاعد، من هناك، غيومٌ من كلّ نوعٍ ولونٍ وحجمٍ؛ منها الطوال والعِراض، منها الزاهية والباهتة، منها قصورٌ وسفنٌ. وقبل أن تُنْفَخ وتُطلَق، كانت تأخذ في التصعيد، بتؤَدةٍ،

للالتحاق بربوع سابقيها. وأُخذَت "ماريّا" بمنظرها، وهرعت إلى أجمل غيمةٍ فاستقلّتها، فلا بدّ أن تكمن فيها إحدى مفاجآت الدرب المسحور نحو البلاد الغريبة. وما لبثت المركبة البيضاء أن انطلقت، رشيقةً، صوب السماء، على صهوة نسمةٍ عجلى.

واعترى الذهولُ المسافرةَ الشابَّة، وهي تتحوّل بين جيوش الغيوم التي كانت تحاكي قلاعًا متراقصةً. غير أنّ مركبتها كانت هي الأجمل، بلا منازعٍ، وما عتّمت أن تسلّمت زمام القيادة، وأمست رائدة الجحافل الطائرة الوضّاءة.

وتيقّنت الفتاة أنّها لا بدّ سائرةٌ في درب البلاد الغريبة، وأخذتها النشوة حين رأت نفسها حوذيّة رتلٍ جرّارٍ، لا نهاية له. إلاّ أنّها لم تكن قد لحظت أنّ ما كان يتقدّمها من غمامٍ قد توقّف فجأةً عن التصعيد، وتلاشى تحت قبضة المطر. وها قد آن لمركبتها أن تلقى نفس المصير: لقد أخذت في الهبوط على نحوٍ خطيرٍ مخيفٍ، واتّشحت حواشيها بلونٍ رماديٍّ، وراحت تضمر وتسيل، وعصف بها الرعب، فانطلقت تعدو متقهقرةً، نحو الشمس، وذؤابات الغيوم، التي كانت تلحق بها. إلاّ أنّ اندحار الغيوم كان عامًّا شاملاً. وتولّتها الحيرة: أين المفرّ؟

ووافتها النجدة من حيث لم تحتسب، حين دنت منها غمامةٌ صغيرةٌ قائلةً: "تفضّلي بالصعود، يا آنسة... إنّني صغيرةٌ، بسيطةٌ، أفتقر إلى الرفاهية، ولكنّ لي طاقةً ممتازةً على التصعيد، وفي التصعيد خلاص الغيوم..." وقفزت "ماريّا" على متن الغمامة الصغيرة التي انطلقت نحو الأعالي. ورمت ببصرها إلى ما كان، قبل هنيهاتٍ،

أسطولاً متألّقًا فإذا به سحابةٌ غبراء تنهمر.

واستعادت الغمامة الصغيرة أنفاسها وقالت: "على هذا الارتفاع، نحن في مأمنٍ".

وتنهّدت الغمامة الصغيرة ثمّ استدركت: "يبدو أنّك غريبةٌ عن هذه الأمكنة، ويتحتّم عليك مغادرتها، ومغادة البحر أيضًا، فهو ربّما، إكرامًا لك، قد أجّل ما كان يُعدّه من عواصف، لمدّة يومٍ واحدٍ. فلا تضيّعي هذه السانحة. سأعود بك إلى موطن الغيوم، ومن هناك عليك بالعودة، في غير تلكّؤٍ."

وسألت الفتاة في لهفةٍ: "وماذا، إذن، عن البلاد الغريبة المسحورة؟"

– إنّها في كلّ مكانٍ.

– في كلّ مكانٍ!

ولم تستطع المضيّ في سؤالها، إذ كانت الغمامة تحوم فوق مصنع الغيوم، وتأمر راكبتها في حزمٍ: "هيّا، اقفزي من غيمةٍ إلى غيمةٍ، حتّى تبلغي إلى أسفل، أمّا أنا ففي الهبوط فنائي. وداعًا".

وانحدرت الفتاة حتّى المصنع، حيث ينسج البحرُ الغيومَ، قبل نفخها؛ وابتعدت عنه مسرعةً. كانت الشمس تخطّ على اللّجج طريقًا ذهبيًّا يفضي إلى الأرض، فانتهجتها المغامرةُ الصغيرة، في حَذَرٍ...

وفي بعض الطريق شاهدت ما يشبه حصاةً رماديّةً فاغرةً فاها. فتجرّأت وسألته:

– مَن تكون، أنتَ؟.

فتنحنح ذاك الذي يحاكي حصاةً، وأجاب وهو يبلع ريقه:

– يدعونني محارةً... أنتِ رقيقةٌ، لأنّكِ رضيتِ أن تكلّميني، مع ما أنا عليه من قُبح شكلٍ. كثيرٌ من الأسماك يهزأون بي قائلين: "أنتِ التي تلبسين لون الأرض، متى ستطبقين فمك؟ ولكنّهم لا يعلمون...

– وما الذي لا يعلمونه؟

– إنّني أعمل في كثيرٍ من الدأب

– وماذا تفعلين؟

وفغرت المحارة فاها، حتّى كاد يتمزّق... بدت مضحكةً، حقًّا.

وحملقت "ماريّا" فجأةً حين أسفر جوف المحارة، الذي استحال، فجأةً، مخبئًا ثمينًا، عن لؤلؤةٍ أشدّ شفافيّةً من الماء القراح، اختصرت في ثناياها كلّ ضياء السماء. ثمّ ما لبثت المحارة أن أطبقت فاها، في كثيرٍ من الحِيطة، وأردفت:

– إنّ ذلك يقتضي صبرًا جمًّا، ويشغلنا بحيث لا يسعنا الاهتمام بأيّ شيءٍ آخر.

وظلّت الفتاة مرتبكةً، مأخوذةً؛ وحين استعادت جأشها سألت:

– وماذا ستصنعين باللؤلؤة عندما تفرغين منها؟

– سأموت، مثلما مات آبائي، وستستقرّ اللؤلؤة في قعر البحر، فتُكسِب الأمواج مزيدًا من ألقٍ. اُعذريني الآن، فعليّ أن أستأنف مهمّتي.

وأطبقت فاها وهوت إلى الأعماق.

وجمدت "ماريّا" في مكانها. وإذا بصوتٍ خافتٍ يتنامى إلى سمْعها. كانت طُحلبةٌ تهمس:

– أترين؟ من كان يصدّق؟

وقالت الفتاة للطحلبة:

– أأنتِ التي تكسين المياه بهذا الشَعر الأخضر الجميل؟

وردّت الطحلبة:

– ليس هذا بذي شأنٍ. مهمّتي أن أسدي خدماتٍ صغيرةً: فعندما تصعد المحارة لتعرّض لؤلؤتها للنور، تستريح عليّ، برهةً، فتسبغ عليّ الشمس اللون الأخضر. ليس بوسع أحدٍ أن يستمدّ من ذاته الشيء الكثير.

وفجأةً انقلب التيّار، وهوتِ الطحلبة أيضًا إلى أعماق اللجج، إلاّ أنّها لم تتوانَ، قبل اختفائها، عن إرسال إيماءةٍ رقيقةٍ.

وعركت "ماريّا" عينيها... كانت مستلقيةً على رمال الشاطئ، ومن ورائها يمتدّ دربٌ حجَريٌّ بين الصخور، فانتهجته برشاقةٍ، مطمئنّةً إلى الإحساس بالحجر الصلب تحت أقدامها. وأدركت، آنذاك، أنّها قد اكتشفتِ الدرب الذي يُشرع، مرّةً كلّ مئة عامٍ، صوب بلادٍ غريبةٍ.